هيفاء هزاع
سكاي
SKYE

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

ⓒمركز الادب العربي للنشر و التوزيع ، ١٤٤٧هـ

هزاع ، هيفاء عبدالكريم
سكاى. / هيفاء عبدالكريم هزاع - ط١. .- الرياض ، ١٤٤٧هـ
٢٦٤ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٩٨٣٩
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٥٩٣-٠٢-٨

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@ServicesBook1
مركز الأدب العربي
adabarabic7
aladab@subeie.com

للتواصل :
0541212202
0541212210

تنفيذ الطباعة
مطبعة الكتاب العربي - الرياض

المملكة العربية السعودية-الرياض
لطلب إصدارات مركز الأدب العرى
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989
جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

الحقوق محفوظه لا يسمح بإعاده إصدار هذا الكتاب أو اى جزء منه ، او تخزينه فى نطاق استعاده جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الاشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الوارده في الكتاب تعبر عن وجهه نظر المؤلف دون أدنى مسؤوليه على الناشر .

شُكر وتقدير

إلى فريق الإبداع والمساندة في هذه الرواية:

- المراجعة الأسلوبية: عمر سرحان [@omar.asserhan]

- المدقّق اللغوي: أيمن أبو القاسم [@mudaqwiqun]

- مصمّم الغلاف ورسومات الرواية: [@Souhaib_design]

- رسم إضافي: ريان طالب [@rayan_taleb17]

لأنّ لا حربَ تُخاض بلا جيشٍ، ولا روايةَ ترى النُّور بلا من يُشارِكُها الرّوح...

شكرًا لكلّ من كان جيشًا متفانيًا في رحلة سكاي، ولكلّ من صقل الكلمات، وأحيا الرواية بألوانه.. فبفضل جهودِكم؛ أصبحَتِ الرِّواية كما تستحق.

ART_OF_BOOK

الإهداء

إلى الذين هزموا شيطانهم الداخلي، ولم يمنحوا هذا العالم فرصة التعرف عليه...

شكرًا لأنّكم اخترتم النورَ حين كان الظلام أقرب.

ART_OF_BOOK

من يظن أنّ الشياطين لا تطأ الأرض..

@ART_OF_BOOK

لم ينظر حوله جيدًا..

ففوقها يسير كثيرٌ منهم ... بوجوهٍ بشرية.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

ملاحظة

الرواية مستوحاة من أحداثٍ حقيقيّة.

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

مُقدّمة

غالبًا ما نرى المسلسلات والأفلام على أنّها مجرّد نسجٍ من الخيال، ونتتبّع أحداثَها مستمتعين مدركين أنّها ليست إلّا إبداعًا من وحي الكاتب. وقد نستبعد احتمالية حدوث تلك الجرائم وذلك الظلم في عالمنا الحقيقي، ومع ذلك، فإنّ في دواخلنا إدراكًا عميقًا يخبرنا أنّ الأفعال والأفكار التي تُنتجها العقولُ البشريّة قد تتجاوز أحيانًا حدود الإنسانية نفسها لذلك؛ أردتُ أن أجعلك -عزيزي القارئ- تطّلع على جزء من هذا الظلم بنفسك.

الجزء الاول

الفصل الأول

إنها عتمة الظلم والأذى، حيث لا مكان للنور إلّا في قلوب الضعفاء، وأي ضياء محبوس، فلا قيمة له؛ لذا لا قيمة لحياة معتمة، حياة يتساءل فيها كلُّ ذي همٍّ: أين الرب من كلّ هذا؟!

صراخٌ يتلوه ضرب، وضربٌ يُحدِثُ كدمات، وكدماتٌ تتسرَّب من ازرقاق في الجلد إلى آثارِ حروقٍ في صميم الروح..

كانت (سحاب) تعيش في كنف عمّها الظالم بعد يتمها، وأخوها الأكبر لم يبقَ من أثره إلا الذكريات. كانت بلدتهم الصغيرة تعيش في ظل الماضي البائد، بلا مشافٍ تُطَبِّبُ المرضى، ولا مراكز شرطة تحمي الضعفاء، كان عمُّها أشبه بسوط وُجِد لينزع عنهما لذة الحياة التي لم يذوقا منها شيئًا، عمٌّ يتمسك بهمجية الماضي، معللًا ذلك بأنَّ ما مضى أسلمُ للبشر؛ فيحرِّم كلَّ تطوُّر على أهل بيته وعلى من يعملون تحت إمرته.

وفي ظلِّ هذه القيود القاسية كبرت (سحاب)، بين عم مؤذٍ وأخ هارب، لا تعرف من دنياها إلَّا الخضوع لقسوة عمّها.

وفي ليلة كانت سحاب مستلقية على فراشها تبحث عن شيء من الراحة وفجأةً ركل عمها الباب مقتحما غرفتها، كانت عيناه تقدح شررًا؛ فجفلت (سحاب) وارتعدت فرائصها، محدِّقة في وجه عمِّها الذي صرخ في وجهها وهو يمد إليها خاتمًا ذهبيًا:

- مَن سمح لكِ بنزع الخاتم، أتريدين ألَّا تظهري أمر خِطبتِكِ لمن يراكِ من الرجال يا أيتها ال...

لم تتمكَّن من الردِّ، كان الخوف قد عقد لسانها عقدةً تسلبها حتى التأتأة، لكنها كانت تقسم لنفسها أن هذا ليس مرادها، وما نزعت الخاتم إلا لعدم قبولها فكرة الزواج غصبًا.

استمرَّ عمُّها (سامين) في الصراخ عليها، حتى نفد صبره من صمتها

فصفعها، ثم انهال عليها الضرب من كل جهة، ولم يغادر إلّا وقد أجبرها على ارتداء الخاتم، وولّى وهو يلعن ويقذف.

***

خرج (سامين) والغضب يسيطر على ملامح وجهه المريعة. كان قصيرَ القامة، ضخمَ الجثّة ذا بشرة قد لَفَحَتها الشمس فاحترقت، رأسه أصلع إلّا من ثلاث شعرات ينبتن في رأسه كعشبة يابسة في صحراء قاحلة. لم يكن بين ملامح وجه (سحاب) القمرية وملامح عمّها البشعة أيّة صلة تُذكر، كأنّ الجينات اعتذرت منه وقرّرت أن تبدأ معها من جديد.

كان يظنّ أنّ القسوة هي القوة الحقيقية، وأنّ الصمت الذي يفرضه على الآخرين هو ذروة السيطرة. كان قلبه خاليًا من الرحمة، لا يعرفها ولا يمنحها حتى لأقرب الناس له، يظلم وهو يعتقد أنّه يُقيم العدل، متشبثًا بماضٍ لم يتحقق من صدقه، يردده كقانون لا يُناقش.

وبالرغم من هيبته بين الناس الغرباء التي تملأ الأماكن خارج أسوار بيته، كان منزله الكبير أشبه بتابوت لمن يقطنه، كان خاليًا من الدفء، تكسوه الوحشة، ويُثقله الصمت والوجع، وكأنّ ظلّ ظلمه قد تسرّب إلى الجدران، فترك عليها أثرًا لا ينمحي.

***

في حياة البشر، عندما ينغمس الشخص في الشرّ؛ فإنه - بشكل من الأشكال - يسكن جزء منه في روحه، ومهما حاول إخفاءه، فلن يتمكّن من ذلك أبدًا. إنّ السوء الذي يسكننا، حتى وإن بدت البراءة على وجوهنا لن نستطيع تجاهله؛ فإنّه يتسلّل خِلسة ليسكنَ ملامحنا.

إن الجريح مِن عائلته يبقى معطوبَ الجناح، يبقى جزء منه مبتورًا، ومهما تظاهر بغير ذلك فسوف تكشفه جوارحه، والجناح الذي نتف ريشه خيرٌ من المقصوص، لكن الأقارب لا يعرفون إلا القصّ، فعاشت سحاب بأجنحة مقصوصة، تنزف إلى ما شاء الله.

كانت تنظر إلى نفسها في المرآة لترى الدماء ثبلّل شفتيها، وعيناها تترقرقان بالدموع، فتنزل واحدة ببطء ثم تتلوها أخرى. شرعت في تغيير ملابسها الممزقة، وعلى جسدها بقايا عنفٍ واضحة: كدمات متفرقة، آثار أصابع مطبوعة على خدها، وندوب حديثة تشهد على الضرب الذي تلقته بصمت. كانت تنظر إلى نفسها بشفقة وعجز. وكم من المؤلم أن يعجز المرء عن إنقاذ نفسه!

ابتلعت سحاب ريقها، شعرت بطعم الدماء فيه، مسحت فمها، وحاولت أن تستجمع قواها، فما تمرُّ به ليس بالشيء المؤقت، ولن يقف إلا بعودة أخيها الذي طال غيابه.

فتحت خزانتها وأخذت تبدّلُ ملابسها، وترطب أماكن جروحها، وهي تجز على أسنانها متألمة من الشقوق الدامية التي تكسو جلدها. تنهّدت، ثمّ ردّدت بصوتٍ مبحوح وهي تبتلع غصتها: ماذا لو كان أبي هنا، وعائلتي كاملة بلا غياب أو فقد؟ ماذا لو كان حضنه هو الدفء الذي ألوذ به من قسوة الدنيا؟ ماذا لو أنني ما زلتُ صغيرة، أجلس على ركبتيه، أداعب لحيته البيضاء التي تُجسد صفاء قلبه؟

ثم كررت دعاءها الذي لا يفارق لسانها عندما تشعر بالضيق: «اللهم أنت تعلم حالي فأغثني».

استلقت على سريرها مُغمِضَةً عينيها اللتين قد أرهقهما التعب، وراحت تبحث عن الأحلام، في عالم التمني.. حيث تعيش بمخيلتها في حياة تجد فيها مقعدًا في رحلة الأمان، رغم إدراكها أنّه لا وجود للأمان في هذه الحياة، ولكنّ الطبيعة البشريّة تسيطر أحيانًا على خيالنا عندما نعيش في عالم مُوحِش، لنصنع لأنفسنا حياةً غيرَ واقعيّة لنسعد بها مؤقتًا.

في تلك الأثناء، صدر صوتٌ غريب، وشعرت بأنفاس تلامس بشرتها التي كأنّها نُسجت من سُحبٍ ناعمة، وقد أخذت من اسمها نصيبًا. لم تستطع أن تفتح عينيها، لكنّها ولجت إلى عالم الظلام لترى من وراء حجاب جفونها

المغلقة، كانت نبضات قلبها تقرع كأنها طبول تعلن قدوم البلاء، وشعرت أنّ دماءها تتجمد في عروقها، وعندها تراءى لها من بين الظلام طيفُ شخصٍ يجول حولها، فقالت بذعر:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

فأجاب بصوت رجولي خشن:

- لا تخافي، لن أسبب لكِ أذى ... أنا هنا لمساعدتك فحسب.

رفعت رأسها وحدقت نحوه، كان ما تراه لا يشبه أيّ شيء رأته من قبل. فشَخَصَ بصرُها، وجحظت عيناها، وتسلل إليها خوفٌ اعترى كلّ خليّة من خلايا جسدها؛ لهولِ ما ترى، ولكنّ فضولها أخذها لتدقق به، فرأت كائنًا غريبًا يرتدي ملابس بيضاء ويضع على رأسه شالًا طويلًا. كان شفافًا كروح قد فرّت من ملكوت الله، ذا لحيةٍ كثيفة كأنّ ملامحه توضّأت بالنّقاء، فيه ظُهرٌ لا يخفى، وروح تُشبه السلام.

وبعد أن استجمعت سحاب قواها، قالت بحذر:

- من أنت؟ وماذا تريد؟!

- أنا هنا لمساعدتك.

- ولكني لم أطلب المساعدة.

نظر إليها ذلك الكائن الغامض، الذي لم تتعرف على انتمائه بعد، نظرة ذات مغزى، دون أن ينبس ببنت شفة.

- هل أنتَ شيطان؟

- لماذا لا أكون ملاكًا؟

ثم ابتسم وقال: هل شكلي لا يوحي بذلك؟

ثمّ فكرت (سحاب) في نفسها بدهشة: هل استجاب الله لي؟!

استطاع ذلك الكائن قراءة ما يدور في ذهنها، وأجاب بصوت هادئ:

- إنما أنا طيفك الحارس. ونحن لا نؤذي أحدًا، بل نرشد ونساعد البشر، وخصوصًا المظلومين منهم؛ فهذا العالم موحش ومخيف ومليء بالظلم. كأنّه غابة.. وأعلم أنّ دنياكم لا عدل بها، وقد اصطفاني الله -جل وعلا- لأحميك. اطمئني كل الغيوم السوداء التي تملأ سماءك الآن، ستكون نهايتها.. (مطر).

- هل ستروي أرض روحي القاحلة؟

- نعم، لا تفقدي إيمانك. وإني أعلم ما يدور في عقلك الآن ... تريدين مقابلة الشر بمثله.

- لا تقلق عليّ، فحبُّ الخير الذي بداخلي يمنعني من ذلك... وما يدور في عقلي من ردٍّ على الشر بمثله، سيبقى حبيسًا هناك، ولا أنوي الإفراج عنه.

***

استيقظت (سحاب) فَزِعةً وقَلِقَةً من حلمها الغريب وهي تتساءل: لِمَ عاد ذلك الكائن مجددًا؟!

ثم نهضت من سريرها، ومشت بخطوات بطيئة نحو الشرفة تتأمل الفراغ الذي أمامَها بهدوء لدقائق عدة، ثم أخذت نفسًا عميقًا وهي تحدث نفسها: أتكون أضغاث أحلام أم رؤى؟!

كانت (سحاب) تعاني من فيض أحلام لياليها على واقع نهارها؛ كانت تعاني من أمر غريب... أحلامها كانت وكأنها بشكل ما تَتحقَّق، لكن بشكل آخر، كأنَّ الواقع يعيد كتابتها بطريقته. فكلَّما أغمضت عينيها؛ استيقظ شيء منها في الواقع.

لقد اعتادت (سحاب) أن ترى ما لا يُقال في يقظتها. لكنَّ هذا الحلم، رغم سكونه، كان أثقل من كلِّ ما سبق. كان شيئًا في روحها يتهيأ لأمر لم تدركه بعد.

ART_OF_BOOK

***

في يوم من أيام الماضي البعيد رأت (سحاب) في حلمها خيال والدها يمشي بهدوء بين صفوف حقول القطن الممتدة، يلمس بأطراف أصابعه الزهور البيضاء كأنه يودعها بلطف. كانت الحقول بيضاء بالكامل، لا فرق بينها وبين شيب لحيته، وكأنّهما خرجا من الأرض نفسها، ناصعَين هادئين يرويان قصة النقاء والصبر.

توقف قليلاً، ونظر إليها بعينين مَلَأهُمَا الحنانُ، ثم قال بصوت هادئ وثابت: أترين براعم القطن يا (سحاب)؟! في قلب التراب يولد القطن نقيًا... لا يتأثر بظلمة الأرض، ولا يتلوث بترابها، ورغم أنّ ساقه البني الجاف يحمل آثار الريح والتعب، إلّا أنّ زهوره تبقى بيضاء لا تلوثها الأرض. فلا تجعلي شر الحياة يعتم نقاءك يا ابنتي.

ثم ابتسم وجلس بين الحقول، وسط البياض الصامت، كأن الأرض تحتضنه برفق بعد عمر من العطاء. وضع كفيه على ركبتيه ونظر إلى الزرع بعين ممتنّة، ثم قال بصوت خافت يحمل راحة السنين: «حان وقت الاستراحة». تبسّم بهدوء واستراح بصمت، ولم يقل شيئًا ... وكأنّ كل ما أراد قوله قد قاله من قبل.

ولم يمض وقت طويل بعد ذلك الحلم، حتى فارق والدها الحياة، وكانت كلمات حلمه تهمس في قلبها كوداع لم يقله. وكعادة أحلامها أثبتت نفسها من جديد.

الفصل الثاني

قُبَيلَ الشروق استيقظت (سحاب) واتَّجهت مسرعةً نحو الحديقة الخلفيّة للمنزل نحو الإسطبل؛ إذ عليها تقديم الطعام للخيول التي يمتلكها عمُّها. كان ذلك المكان هو الأقرب إلى قلبها، وخاصة في أوقات الصباح، حيث الهدوء والسكينة بعيدًا عن ضجيج البشر.

انتهت من تقديم الطعام سريعًا ووقفت بجانب الحصان الأقرب إلى قلبها، كانت علاقتها بـ(ماقي) حصانها الأبيض، تنسيها كثيرًا من الهموم التي تصاحب أيّامها، كان يشعر بها أكثر مِمَّن هم حولَها من البشر. نظرت إلى الأعلى، حيث السماءُ التي تتلوَّن بلونها الأزرق الآسِر، ثم وضعت شالها حول رقبتها وامتطت حصانها، وسار بها إلى حقول القطن المزهرة؛ راجية أن ترى ما قد يُطمئن روحَها.

لقد كانت دائمًا تهرب من المنزل قبل الشروق بلحظات قليلة في الوقت الذي يَغطُّ فيه عمها في نومه، تتسلَّل بخفَّة، راجيةً أن تمنحها الساعات الهادئة ما بين الفجر والشروق شيئًا من الطمأنينة؛ لتداوي بها روحها القلقة، لكنَّها لم تكن تعلم أنَّ هذه المرة... لن تكون كأي مرة.

كان (ماقي) يجري بها بسرعةٍ كبيرة، إلى أن داعبت نسماتُ الهواء الباردة بشرتَها البيضاء، وتسلَّل ذلك النسيم إلى خصلات شعرها الطويل. أغمضت عينيها الخضراوين، اللتين بدتا كحبَّتي زيتون تسبَحَان في إناءٍ من العسل؛ بفعل النور المتوهِّج من شروق الشمس.

تدفُّقُ الرياح في عينيها، أدمَعَهَما وصارت رؤيتها أقرب إلى الضبابية، انحنت لتعانق رقبة (ماقي) وهو يخب بالأرض بسرعة إلى أن توقف فجأة عن الركض وصهل وهو يقف على أقدامه الخلفية فزعًا. لم تستطع التحكُّم به؛ فسقطت أرضًا وهي ترى سبب ما حدث لـ(ماقي)، كان أحدهم يقف في طريق الحصان فحاول تجنبه فكانت (سحاب) هي الضحية.

هرع الشاب لمساعدتها بعدما ارتمت من فوق حصانها واصطدم وجهها

بالأرض.. أزاح بيديه شعراتها المتناثرة عن وجهها وهو يحاول أن يتأكّد من سلامتها، لم يكن بها سوى جرحٍ صغير في خدها. لكنّها غائبة عن الوعي. بدأ بمحاولة إيقاظها، أجلسها وأمال رأسها إلى صدرها وراح يهدهد على خدها الآخر بخفة، ولكنها لم تستيقظ، كان يشعر بأن بشرتها الناعمة أضعف من أن تتلقى صفعات أقوى من يده المفتولة، لكنّه اضطرّ لذلك؛ فصفعها صفعةً كانت كفيلةً بطبع أصابعه على خدها. فوبّخ نفسه محدثًا بارتباكٍ: ماذا فعلت، كم أنت أحمق؟!

لكنه ابتهج عندما بدأت (سحاب) في تحريك أهدابها، فأخذ ينادي عليها بلطف لعلها تستفيق، ابتلع ريقه عندما تحدثت (سحاب) متمتمة:

- أرجوك لا تضربني، أنا لم أفعل شيئًا.

سار بأنظاره يتفحّص أناملها بعدما لفت انتباهه خاتمٌ كانت تضعه في إصبعها البنصر بيدها اليسرى، ثم نظر إلى جفونها وهي تنزاح تدريجيا لتظهر له عيونها الخضراء الآسِرة. كانت رؤيتها شبه معدمة، ولا ترى مما يجب أن تراه إلا خيالَ رجل. قالت بصوت أقرب إلى الغمغمة:

- ابتعد عني ولا تلمسني... من أنت؟!

نهضت من حجره ببطء وشدت بيدها على رأسها مطأطئة، بينما نهض الشاب وشرع ينفض التراب عن ثيابه.

كانت أشعة الشمس تسارع في إعادة كامل وعيها، فلاحظت بأنها قد أمضت الكثير من الوقت خارجًا، فقالت وهي تنظرُ إلى السماء:

- يا إلهي، لقد أشرقت الشمس! يجب أن أعود بسرعة.

حاوَلَت الوقوفَ بينما كان ثقل أقدامها يسحبها إلى الأسفل، حاول الشاب مساعدتها لكنّها رفضت ذلك، ونادت على (ماڤي) الذي اقترب منها بسرعةٍ لتمتطيه. رجّلت بيدها شعرَها المبعثر بينما التوتر والرهبة يقتحمان ملامح وجهها. قال الشاب بعدما راقب رشاقتها في ركوب الحصان وكأنها لم تكن

في تلك الحالة قبل قليل:

- ولكنني لم أعتذر لكِ عمّا حصل.

- لا داعي، أنا ذاهبة.

- أيمكنني سؤالك؟

نظرت إليه (سحاب) نظرة مطولة ثم قالت:

- لا بأس، ولكن بسرعة.

- هل الخاتم في يدك للزينة، أم يحمل دلالة أخرى؟

صمت قليلًا منتظرًا الاجابة، ثمَّ أتبع قائلًا:

- أمتزوجةٌ أنتِ؟ أو ما شابه ذلك؟

رمقته (سحاب) بنظرة حادّة، وأجابت:

- وما شأنك؟!

ابتسم وقال دون أن يهتز صوته:

- أظنُّ أنه سيكون لي شأن بعد الآن... ثم إنَّ هذا الخاتم صُنع لهذا الغرض.

بدت الدهشة على وجهها، لكنَّها لم تجِبه. فأعاد السؤال بعد أن عجز عن كبح فضوله:

- أجيبي فقط، يا... (سحاب).

انعقد حاجباها، وسألته بدهشة:

- وكَيْفَ عَرفْتَ اسمي؟!

أشار برأسه نحو عنقها وقال:

- من العقد الذي يحيط بعنقك.

نظرت إلى جَيدها.. كانت السقطة قد أظهرت أكثر مما كانت معتادة على

إظهاره، وقد كانت قلادتها التي تحمل اسمها مكشوفة بالكامل، أعادت تغطية ذلك الجزء، ثم قالت بنبرة صارمة وحادّة:

- اغرُبْ عن وجهي، أيها الغريب!

لكنه اقترب خطوة، وهَمَسَ:

- أم أنَّكِ مُجبرة؟ لا تقلقي... سأجعلك ترتدين واحدًا بإرادتك.

أثار حديثه تعجُّبَها وغضبَها معًا، فنكزت الحصان بقدمها ليمضي بها، وقالت بحدَّة:

- ما الذي تهذي به أيها الأحمق؟!

ضحك بخفة، وتجاهل غضبها، ثم قال:

- لقد أخطأتِ في اسمي... (غيم) اسمي (غيم).

وصاح بصوت مرتفع:

- سأتزوجك على أيّ حال.

لم يوقفها، ولم ينادِ عليها ... فقط اكتفى بالنظر خلف أثرها وهي تبتعد بسرعة حتى تلاشت عن أنظاره تمامًا. ولكنَّ ملامح وجهها لم تتلاشَ عن خياله، كان على يقينٍ بأنهُ لم يرَ فتاة عادية مثل أي فتاة... إنما رأى قمرًا يكاد ينير ظُلمَة أيامه. ابتلع تنهيدةً عميقة، ثم قال بصوته الداخلي:

أهلاً بالألوان التي ستبعث الربيع، وتروي جفاف روحي، وتُزهِر فيها ما ذبل. أهلًا بالأخضر. أهلًا بالنور الذي كسر ظلمة أيامي. أهلًا يا قمر!

كانت (سحاب) قد وصلت إلى المنزل، وما إن دخلته حتى رأت عمَّها، الذي استقبلها بنفاد صبر، ووجهه يفيض غضبًا قائلًا:

- أين كنتِ أيَّتها المتمرِّدة؟!

ابتلعت ريقها ثم قالت متلعثمة:

ART_OF_BOOK

- ذهبت لتفقد (ماڤي) وإطعامه.

تجاهل عمها تبريرها وقال بصيغة الأمر:

- اليوم سيكون عقد قرانك؛ اذهبي لتتجهزي دون إضاعة الوقت.

أجابته بصوتٍ حزين:

- ولكن...

فقاطعها بصوتٍ غليظ:

- لا أريدُ سماع اعتراضاتك!

ذهبت مسرعةً إلى حجرتها وهي لا تكاد تُبصرُ شيئًا أمامها من غزارة الدموع التي انهمرت من عينيها. يصبح الإنسانُ أعمى في كثيرٍ من لحظات حياته... حينما يبكي، وحينما يحب، وحينما يرغب في الانتقام... في تلك اللحظات لا يرى الصواب أبدًا.

الفصل الثالث

ها قد مضى يوم كامل بسرعة، وأشرقت الشمس معلنة بداية يوم جديد، مُعلنةً بداية دخول يومٍ يحمل معه كثيرًا من الأمل بالنسبة للكثير، ولكن.. ليس لمن يعيشون في صباحات مُعتمة، فكيف لأشخاصٍ ليس لديهم فجرٌ تشرق فيه شمسُهم؛ فأيامهم جميعها مُعتمة كالمساجين الذين حُكم عليهم بالمؤبد في أحد سجون (ريكوز) فليلُهم ليس كباقي الليالي المعتادة؛ ليلهم يصحبه ظلامٌ دامسٌ.. معتمٌ ومرعبٌ ومخيف، والثواني التي تمر فيه تقودُهم إلى الهلع والجنون. يعيشون أوقاتًا طويلةً ومملةً، كأنهم يعيشون في ليلة من ليالي القطب الشمالي الطويلة، فكيف لبيئة كهذه أن ينبت فيها الأمل؟!

تأخر الوقت، وحل المساء، و(سحاب) لم تتحرك من مكانها على غير عادتها، ولم تذهب إلى (ماڤي) منذ الصباح. كان الألم الذي في قلبها كبيرًا، والعجز والفشل يحيطانِها للحدِّ الذي جعلها تستسلم في فراشها معلنةً الهزيمة، تنتظر موعد عقد قرانها الذي كان بمنزلَة نهاية العالم بالنسبة لها.

الشيء الوحيد الذي استطاعت (سحاب) تحصيله من حياتها لينفِّسَ عنها، هو أنَّها تعلمت القراءة والكتابة في صغرها، في ظل وجود أبيها، فكانت كلَّما أطبقت أضلعها على قلبها؛ أمسكت ورقة وقلم، وكتبت ما يخفف عنها وطأة الظلم الذي تعيشه.

قبل الغروب كانت تمسك بورقة قد ابتلَّت أجزاء منها بسبب انهمار دموعها المتلاحقة، كانت يدها المرتجفة تُمسك بالقلم بطريقة غريبة وكأنها تحاول إخراج الكلام من عقله لا من عقلها. مضت عدة دقائق قبل أنْ تتمكَّن من كتابة كلماتها الأولى على تلك الورقة:

«كان الحزن عظيمًا إلى الحد الذي جعلني أُعلن هزيمتي لكثرة الخسائر التي لم أعُذ أقوى حتى على عدِّها. ولم تعُد أصابع يدي تكفي لحسابها، وكلما تذكرتُ أنَّ لدي قدمين.. كبرت خيبتي. فمِن أين لي أن أبدأ؟ أمِن

ذاتي؟ أم من أحلامي التي تهاوَت؟ أم من فشلي الذريع الذي يلازمني كظِلٍّ ثقيل؟ أم من كوني أصبحتُ شخصًا غير مرئيّ... كأنني شيءٌ مستهلك، انتهت كل أوراقه الرابحة؟ أشعر بالشفقة على نفسي، وهذا ما أجيد فعله فقط. فالضعيف، الجبان... هل بوسعه أن يفعل شيئًا سوى ذلك؟».

كتبتْ تلك الكلمات في مدونتها وأغمضت عينيها محاولة التحول من عالمها الواقعي إلى النوم.

***

عند الساعة الثامنة مساءً، وفي فناء المنزل، كانت التجهيزات قد اكتملت على أكمل وجه، بأجواءٍ احتفالية لاستقبال المناسبة المنتظرة، وكان عمها مبتهجًا وهو يُشرِفُ على كلِّ جزءٍ من أجزاء ترتيبات الحفلة.

وبعد تجهيز كل شيء، دخل رجل يرتدي ثيابًا راقية، وقد بدا جليًا أنه قد اختارها بعناية. كان قد شارف على أنْ يدخلَ الثلاثينَ من عمره، طويل القامة، يتمتع ببنية رياضية واضحة. وعيناه سوداوان تومضان بمزيج فريد من الغموض والثقة، وعلى جبينه انسدلت خصلة شيب بيضاء، خالفت سواد شعره كأنّها سطر مكتوب من عمر لم يعشه بعد.

ART_OF_BOOK

وعلى جبينه انسدلت خصلة شيب بيضاء،

خالفت سواد شعره كأنها سطر مكتوب من عمر لم يعِشه بَعدُ.

دخل (غيم) إلى المكان الذي تجهز لعقد القران، وما إنْ رأته (سحاب) حتى أصيبت بالصدمة. وقف (غيم) بجانبها والابتسامة تملأ وجهه، ثم تحدث عم سحاب قائلًا:

- مبارك لكما.

لم تكن (سحاب) تدرك ما يحدث بعد، فالذي ألبسها الخاتم لم يكن (سالم)! كانت تعابير وجهها تصبُّ كثيرٍ مِنَ الأسئلة الصَّامتة، التي لم يتمكّن أحد من فك أحرفها. همست (سحاب) لـ(غيم) متعجبة مما يحدث:

- ما الذي تفعله هنا؟ ومن أنت؟!

أجابها (غيم):

- ألم أخبركِ سابقًا؟ (غيم)... اسمي (غيم).

- هل هذا ما فهمته مِن سؤالي؟!

أجاب (غيم) مغيّرًا مجرى الحديث:

- أحسن الله عزاءكِ.

- ما الذي تهذي به؟

ضحك ضحكة استهزاء وأردف قائلًا:

- ترتدين الأسود، ظننت أنك فقدتِ أحدهم.

نظر إلى ملامحها المرتبكة وأردف قائلًا:

- يليق بك الأسود، أصبحت كالقمر عند حلول المساء.

- وأنتَ لست سوى الخسوف الذي يصيبه!

- نعم صحيح، فحينما تغضبين يصبح وجهك أحمر كالقمر عندما يصيبه الخسوف، ولكن لِمَ الغضب؟ ألم أخبرك بأنّي سأتزوجك، ولقد وفيت بعهدي.

بدأت أنفاس (سحاب) تتسارع، وبدأ صبرها ينفد، فقالت وفي صوتها نبرة

غضب:

- ومن قال بأني أريد الزواج منك؟!

وقبل أن يرد، وقف عمُها بينهما وطلب منها الخاتم الذي بيدها، وقال لهما بضحكة مصطنعة:

- أتدرون بأني أنا من اشترى هذا الخاتم، فخطيبها السابق تأخّر في جلبه لها، ربما كان بخيلًا... لا يهم فقد أبدلنا الله خير منه.

أخرج (غيم) خاتمًا من جيبه، ومدّ يده ليمسك يد (سحاب)، ولكنها لم ترفعها له، تنحنح عمها فنظرت إليه، كان وجهه يميل إلى الزرقة من الغضب، ولكنها طأطأت رأسها دون أن ترفع يدها، فطلب (غيم) من عمها أن يتركهما ليتحدثا معًا؛ ففعل.

قال (غيم) بنبرة هادئة:

- أنا لم أطلب يدك لأغصبك على شيء، لكنني أرى بأنّنا سنكون خير اثنين إن عشنا معًا.

أصيبت (سحاب) بصدمةٍ ولم تنطق، ثم أكمل حديثه قائلًا:

- لِمَ الصمت؟ يقولون: «السكوت علامة الرضا».

كسرت عبارته صمتها فأجابت بعدما أشاحت وجهها عنه:

- بل سكوتي علامة اشمئزاز.

- جيّدًا! لقد عرفت عنكِ شيئًا جديدًا.

نظرت له بغضب وهي تشدُّ قبضة يدها تحاول منع نفسها من فعل أي شيء قد يصبُّ جحيم عمها عليها، ولم تترك له سوى نظرة حادة قبل أن تدير ظهرها وتغادر متجهة نحو غرفتها. خطواتها تنبض بالغضب وكل حركة فيها كانت تعبيرًا عن نفاد صبرها.

كان عمها يراقبها بصمت، اقترب منها وهي مغادرة وسحبها من يدها:

وسأل مستنكرًا:

- هل ارتديت الخاتم؟

لكنها بدلًا من أن تجيب، ردت السؤال بسؤال:

- من هذا؟ وما الذي يجري هنا؟ أشعر بأني سلعة بين الرجال.

رفع شبابته في وجهها، ونظراته المحتقنة وحدها كانت كافية لتأمرها بخفض صوتها، ثم زفر قائلًا:

- لقد أتى (سالم) اللعين إليّ عند الظهر، وأخبرني أنّه يعتذر، ولا يستطيع أنْ يتزوّجك... يبدو أنّ والدته قد اجتهدت بالدُّعاء له فأدرك خطورة الزّواج بك.

أخذ سحبة دخان من غليونه وأردف:

- (غيم) خيرٌ من (سالم)، ولم أستطع تجاهل طلب (غيم)، فكان له نصيب في أن تعد الحفلة له اليوم.

وجّه نظره إلى (غيم) الواقف بعيدًا عنهما، ابتسم له مُطمئِنًا، ثم أكمل حديثه:

- لقد سألت عن (غيم) وعائلته، لديهم مكانة مرموقة بين التجار، وسيكون عونًا لي في ردّ اعتباري عند بعض المنافسين، وأيضًا عند مَن بيني وبينهم ثأر.

قالت (سحاب) محاولةً استعطافه:

- هل ابنة أخيك أداة للانتقام؟

لم يُجِبها؛ فبقيت تائهة، بينما رفع يدها وأومأ لـ(غيم) بأن يأتي، فأخذ منه الخاتم ووضعه في إصبعها عنوة. خرجت بعد ذلك والغضب يسيطر عليها، ليس من عمها فقط، بل من (غيم) أيضًا. الذي لم يكن راضيًا تمامًا عمّا يحدث، وكان يفكر بها بطريقة أرقى من هذه.

انتهت مراسم الخِطبة الناقصة، وتركت خلفها في عيني (سحاب) ضوءًا باهتًا يشبه الغروب. ذهبت إلى حجرتها وبدّلت ثيابها لترتدي ثيابًا فضفاضة تريحها من ضيق صدرها، وجمعت شعرها في كعكعة مرتفعة، ثم سحبت كرسيًا خشبيًا من أمام مكتبها، والتقطت قلمها محاولة الكتابة:

«أتوه في دوامة الحزن اللّاإرادية، أشعر بالعجز كأنني كسيح أغرق في أفكاري دون قطرةِ ماء، ثم أود النجاة والخروج، وأركض خلفها، ثم أصطدم بالجدار كأنني حبيس في زنزانة.. ولا وجود لمخرجٍ للطوارئ، كالذي يهرع خلف السراب، فهل إلى خلاص من سبيل؟!».

وثُقت مشاعرها بتدوينها على الورق، ثم نهضت وبدأت تدور في الغرفة باحثة عن حلٍّ، ومن دون أنْ تعي داهمها طيفُه، حاولت جاهدة أن تتذكر ملامح وجهه ولم يسعفها خيالها إلّا أن في نهاية لحيته توجد شعرات من الشيب الأبيض، تبسّم وجهها ثم استفاقت من تفكيرها بحرج، وحدثت نفسها: ما الذي أفعله؟ يجب أن أجد طريقة للخروج من دائرة العبودية هذه... لماذا لا أهرب؟! ثم ابتسمت وقالت في داخلها: ليست بالفكرة السيئة، ولكن كيف؟ هل أهرب إلى أخي؟

الفصل الرابع

لم يكن لـ(سحاب) إلا أخ وحيد، وقد طال غيابه عنها، كان قد وعدها بأنه سيعود محررًا لها من بطش عمّها حينما يقوى على ذلك، وكانت قد وعدته ألا ترسل في طلبه إلّا إذا اشتدت عليها الحياة إلى حدٍّ لا يُطاق. كانت قد فكّرت كثيرًا في الهرب، لكن.. إلى أي مكان تلجأ؟ وفي كل شبر من هذه الأرض شخصٌ يعمل لصالح عمها؛ فلم يكن لديها خيار سوى أن ترسل في طلبِ أخيها؛ ليأتي وينقذها ممّا هي فيه، فبدأت بكتابة الرسالة، وما إنِ انتهت من كتابتها حتى أسرعت في الخروج لتوصيلها إلى الشخص الذي يمكن أن يوصلها إليه، كان عليها إنهاء ما بدأت به قبل عودة عمّها.

ولكن لسوء حظّها صادفت عمها الذي قد عاد مبكرًا، وبنظراتٍ غاضبة منه أشار إليها برأسه أن تعاود الدخول إلى المنزل. ذهبَت مسرعة وهي ترجُف خوفًا منه.. دخل وراءها وسأل موبّخًا:

- ما الذي تحملينه بيدك؟!

تردّدت قبل أن تقول بصوت خائف:

- لا... لا شيء.

- يكفيكِ كذبًا لقد رأيتها! هل ترسلين رسالة إلى أحدٍ ما؟!

وقبل أن تجيبه نزع الورقة من يدها بسرعة وفتحها قائلًا:

- ما معنى هذا؟!

كان من حظ (سحاب) أن عمّها لا يجيد القراءة والكتابة، فردت والدموع تغمر عينيها:

- لقد كنتُ أكتب، وعندما خرجت كنت أريد الذهاب لجلب شيء أبري به أقلامي فحسب.

لم يقتنع بكلامها، لكنه أمرها قائلًا:

- لا تعاودي الخروج إلا بإذني.

عادت (سحاب) إلى غرفتها والحزن يعتصرُ قلبها، والغضب يسيطر على مشاعرها إلى درجة كبيرة جعلتها تفكر في أن تُمسك بياقته وتبرحه ضربًا، لكنّها نفضت من رأسها تلك الأفكار وهيَ توبخ نفسها، قائلة: ما هذا.. ألم نتخذ عهدًا بأننا لن نتلوث بهذا المستنقع، وسننجو منه بكامل نظافتنا؟

وقفت عند نافذتها تراقب عمّها إلى أي طريق سيذهب، فاستبشرت خيرًا عندما رأته يتّجه شمالًا، وقد كان طريقها جنوبًا، انتظرت حتى ابتعد مسافة كافية عن المنزل وخرجت بسرعة تجاه ذلك الشاب الذي أخبرها عنه شقيقها أنه الوحيد الذي يعرف عنوانه، وحين وصلت إليه، أنكر في البداية معرفة مكانه، كانت تظنُّ أنه يكذب لسبب ما، لكنّه حين أخبرته بأنَّ أخاها هو مَنْ قال لها بأن تسأله، ضحكَ ضحكة غريبة، وقال لها مستنكرًا طلبها:

- لقد كان ذلك منذ سنين طويلة، كيف لي أن أعرف مكانه الآن؟

كانت إجابته صدمة كبيرة لها، كانت رقرقة الدموع في عينيها كفيلة بأن تجعل ذلك الشاب يفكر مليًا في حلٍّ لأجلها، فأخذ منها الرسالة، وأخبرها بأنه سيرسلها إلى المكان الذي كان يوجد به على أيّة حال. كان ذلك هو الحل الوحيد المتاح لها، فوافقت. وعادت مسرعة إلى البيت.

بعدما رجعت نظرت إلى أنيسها الوحيد؛ القلم الذي كان دائمًا قادرًا على تفريغ أي طاقة سلبية تحيطها. احتضنته بأناملها وبدأت الكتابة:

«جميع الشياطين يتراقصون حولي، لم أعِزهُم اهتمامًا، رغم ضحكاتهم المليئة بالقهقهة والتي ملأت أرجاء حجرتي، فأنا لست أقلَّ منهم سوءًا فكلُّ الأفكار الحقيرة تلك تراودني وتتفاقم بخبث في رأسي، وبشكل مريع وسريع. ولكن يوجد شيءٌ جميل، ربما قد يثير الدهشة، فكيف ينخرط الجمال بالشر!

لأنَّ أفكاري وعُقَدِي وخبثي، كلُّ هذه الأشياء لم تتجاوزني قط، لم تتعدَّ ذلك العقل القبيح، لم تخرج فكرة واحدة قابلة للتنفيذ، جميعها اجمعت

على أن تؤذيني فحسب، ولم يبيّت ذلك القلب النية لإيذاء أحدهم... هذا هو الشيء الوحيد الجميل في الأمر... ما رأيت حربًا أشرس من تلك التي أخوضها ضدّ وحشي الداخلي.

***

ختمت ما كانت تكتبه بجملتها الأخيرة تلك، ثم طوت دفتر مذكراتها وذهبت والألم والغيوم السوداء تُخيّم على سماء ليلتها، ثم ألقت بجسدها على فراشها، وهي تقول بصوت باكٍ تخاطب به فراشها البارد: ليتني أستطيع رمي همومي عليك أيضًا!

شردت بذهنها طويلًا حتى تزاحمت الأفكار في رأسها مجددًا، فأنقلت تلافيفه، ثم عادت وأخذت الدفتر مجددًا، لكن في هذه المرّة كانت تنظر إلى ذكرياتها القديمة، كان الدفتر مميزة للغاية، بأوراقه السوداء وغلافه الأزرق، وفي منتصف الغلاف يكمن قمر يضيء الظلام عندما لا يوجد أيّ نور في المكان وكأنه يخبرها بشيء.

أخذتها الذكريات إلى اليوم الذي أتى والدها من السفر وجلب لها ذلك الدفتر مع أقلام ذات حبرٍ أبيض، وأخبرها أنه ليس بدفترٍ عادي، وأنّ عليها أن تصنع منهُ طريقًا للصواب إن استطاعت إخراج الحكمة منه، وعاودت الكتابة لأنّها كانت تشعر أن الكتابة طوق نجاتها الوحيد:

«إلى فراشي... لقد عدتُ إليك مجددًا، حاملةً إليك أثقالي تلك التي أحنت أكتافي، حيث إنّها قادرة على أن تجعل مني عجوزًا في أواخر عمرها وأنت تعلم جيّدًا أنّي ما زلت في عقدي الثاني.

أتيتك أجرُّ خلفي أطنانًا من همومي وآلامي ودلوًا مليئًا بالدموع لا ينضب أبدًا. يكاد يُغرق العالم بأسره ... فليغرق ذلك العالم الذي يعج بالنفاق والخذلان...

ستغرق يا فراشي! هذه الليلة أعلم أنّك لستَ مسروزًا من بكائي، ومن وجودي أيضًا، وأنّك لستَ مُرحّبًا بي على الإطلاق، وأدرك أنّك مستاءٌ وقد

بدأتُ تكرهني من كثرة الأنين الذي أضجرك به، فلا لومَ عليك، ولكن لنتقبّل بعضنا، فلن يرقد عليك أحدٌ سوى جسدي المحطّم ورأسي اللعين المليء بالأفكار القبيحة، وأعلم أنّ مشاعرنا متبادلة، يا عزيزي».

***

عند فجر اليوم التالي، استيقظت (سحاب) متثاقلة من صداع أقلق نومها، كانت تشعر وكأن ضجيج العالم كله ينبع من رأسها، ورغم ذلك الألم، لم يخطر ببالها إلّا تلك الورطة التي تتورط بها بفعل عمّها. انحنت برأسها أرضًا ثُمّ شدت بيدها عليه وهي تحدث نفسها:

- أرجو أن تصل رسالتي إلى أخي (سديم)، فليس لي أحدٌ سواه. أعلم أنّه سيأتي لأجلي، الأخوة لا يستطيعون التخلي عن بعضهم مهما اختلفت آراؤهم. لكن على الرسالة أن تصل أولًا.

وقفت (سحاب) بعدما شعرت بالراحة، وأخرجت صندوقًا صغيرًا مليئًا بذكرياتهما معًا، ثم سحبت منه صورة تجمعها بأخيها، وأخذت تُخاطب الصورة قائلة: وجود الأخ من أعظم النّعم التي قد تمتلكها أي أنثى في هذا العالم... لكن، ليست جميع النساء ذوات حظ عظيم. فالأخ هو السند الذي لا يميل، هو الجبل الذي نطمئن بالاتكاء عليه، هو الصديق الذي لا نخشى غدره، هو البئر التي نخبئ فيه أسرارنا، والحصن الذي يُبعد عنّا كل مخاوف الدنيا. هو نقطة القوة التي تشد من أزرنا في لحظات الانكسار.

ثم همست وهي تبتسم: كنتَ صديقَ طفولتي، وسندَ شبابي، وأرجو من الله أن تبقى معي حين المشيب.

وما إن انتهت من حديثها حتى احتضنت الصورة وهي تقبّلُها بشوق وحنين.

***

في مكانٍ آخر وبعيد، طرق الباب رجلٌ طويل القامة، اسمر البشرة، ذو

شعرٍ ناعم ينسدل على كتفيه وملامح باردة، وولج إلى الداخل بعد أن سمح له بالدخول. قال (سديم):

- ما الذي أردته، يا (سراج)؟

أجابه سراج وهو يمدُ له ظرفًا:

- وصلك هذا الظرف صباحًا، يا سيدي.

- ألم أخبرك، سابقًا، ألا تناديني بسيدي؟

- لن تُعاد، يا سيدي.

قال (سديم) بعد نظرة توحي بأن الحديث معه عقيم:

- حسنًا، اخرج وأغلق الباب خلفك.

أخذ (سديم) الظرف وقام بفتحه وصُدم عندما وقعت عيناه على محتوى الرسالة التي كانت مُعنوَنة برموز لا يعرفها أحدٌ سواه إلا (سحاب) أخته: (S02-20/s4-4)

ما إن قرأ (سديم) تلك الأحرف حتى انثلمث شفتاه بابتسامة حزينة تذوب كالندى تحت أوراق الذكريات، بينما يعود به الزمن إلى شريطٍ من الأيام البعيدة، يقلّبه بين أنامله بخفة. وما لبثت تلك السحابة الهادئة في عينيه أن تحوَّلت إلى عاصفةٍ هادرة، فتقاطع حاجباه الأسودان الكثيفان، بينما احمرَّت بشرته البيضاء النقية إلا من لحيته المهملة، التي زادتها الأيامُ كثافةً ووقارًا، ارتجفت غضبًا، وتشنّجت قبضته فبرزت عروقه على جلده، ثمّ هزّ الظرف بالهواء وقال بصوتٍ حاد:

- حان وقت اللقاء يا (سحاب).

الفصل الخامس

قبل عشرة أعوام، في ساحة الحقول في الصيف اللاهب، حيث كانت الشمس تركّز لهيبها فوق رؤوس المزارعين، كان (سديم) يجمع القطن وحدَه بحرص، تاركًا أخته (سحاب) تستظل في مكان قريب منه، بعيدة عن لهيب الشمس، قريبة من أنظاره. كان يعرف أن قوّته تكمُن في بقائها قويّة؛ لذلك لم يدعها تُجهِدْ نفسَها، وتكفّل هو بأن يتحمّل عبء العمل وحده.

كان العرق يغسل وجهه النحيل، بينما يداه تجمعان القطن بسرعة وكأنهما يتسابقان مع الزمن. بعد أن أنهى جمع القطن لفت انتباهه صوت أحد العمال حينما كان ينادي:

- لقد وصل السيد (سامين)؛ اعملوا بسرعة، ولا ترفعوا رؤوسكم ريثما يذهب إلى مكتبه.

على الرغم من كرهه لعمه بسبب جبروته وتعنيفه له، كانت نظراته تنطق بأن الفرج قد أتى. ثم التفت إلى (سحاب) التي كانت جالسة على التراب، ظهرها محنٍ من التعب، ووجهها ذابل من الجوع، وتضع يدها على بطنها وكأنّها تحاول إسكات قرقرة الجوع في جوفها. قال لها (سديم):

- هيّا، اذهبي إلى المنزل، وأنا سأجلب الطعام.

توجّه (سديم) بخطى متثاقلة نحو عمّه، الذي كان يسير واضعًا يديه خلف ظهره يتفقّد العُمّال بنظراته الحادّة وهو يبحث عن خطأ ما، وصلعته تلمع تحت الشمس كمرآة باردة تعكس قسوته.

ثم ذهب إلى المكتب، وتبعه (سديم) وهو يلهث من التعب، حاملًا سلة القطن. وما إن وصل قال بصوت متعب:

- أنهينا أكثر من نصف الحقل، يا عم... هل يمكننا أن نأخذ بعض الطعام؟ (سحاب) جائعة، ولم تأكل منذ الصباح.

زمّ العمُّ شفتيه، ثم بصق جانبًا وهو يلف سجائر الدخان، وقال ببرود:

- الطعام لمن يعمل بجد، لا لمن يشكو كالعجائز.

ثم ركل السلة بقدمه، فتطاير القطن وقال بصوت غليظ:

- هيا اجمعه.

اجتمعت الدموع في عيني (سديم) كحشود من الغيم الغاضب... لكنه لم يسمح لها بالسقوط. نزل على الأرض وبدأ يجمع القطن. في تلك اللحظة، كل ما كان يفكر به هو كيف يمكن أن يوفر الطعام لسحاب.

اقترب العم (سامين)، وأمسك (سديم) من كتفه بعنف، وهمس له بنبرة مملوءة احتقارًا:

- هذه الأرض لي، وكل ما فيها لي... أنتما مجرد أيتام تحت رحمتي، لا تنسَ ذلك.

نظر (سديم) إلى القطن المتناثر، ثم تذكر أخته التي تنتظره، وقلبه يكاد ينفطر. في تلك اللحظة انكسر شيء داخله... ثم ولد شيء آخر. نهض ببطء، ورفع رأسه نحو السماء التي كادت تشتعل من حرارة (تموز)، ثم إلى وجه عمه، وقال في قلبه وعدًا لم يسمعه أحد: سأرحل، وسأعود يومًا لتأكل (سحاب) حتى تشبع، وتُسقى هذه الأرض بالعدل، لا بالذل. سأعود يومًا رجلًا لا يُقهر.

ثم استدار، وترك عمّه خلفَه، ومشى نحو البساتين المجاورة. اختفى لساعات طوال، لم يَعُدْ حتى غابت الشمس وهدأت الأرض، وسكنت الدموع الصغيرة في عيني (سحاب) بعدما غلبها الجوع والنعاس. عاد يحمل بيديه بعض الطعام الذي استطاع جلبه من الجيران سرًا.

دخل بخفة وجلس إلى جوارها، وسحب الغطاء عن وجهها بلطف. أفاقت بعينين نصف نائمتين فابتسمت حين رأته، وهمست بصوت مرتجف:

- (سديم) ... عدت؟!

ابتسم وهو يضع الطعام بجوارها، وقال هامسًا:

- تناولي طعامك الآن.

ثم قالت متسائلةً:

- وأنت؟؟

فأجاب وهو يُبعد خصلة شعر عن جبينها وهو يقول لها:

- سأخبرك شيئًا عندما تنهين طعامك..

كانت البهجة تملأ المكان، فرحة (سحاب) الطفولية تكاد أن تبعد (سديم) عما يرنو إليه... لكنّه عقد عزم الأمر. كان ينتظرها حتى آخر لقمة ثم قال:

- سأذهب من هنا، إلى حيث أصبح قويًا... وحينها سأعود لأحميك ولآخذ حقَّنا المسلوب، كما وعدتُ روح أبي.

قالت (سحاب) محاولة فهم ما يجري:

- هل تعني بأنك ستتركني؟ ألا نستطيع أن نستعيد حقنا إلّا بالفراق؟

مسحت عينيها من أثر الدمع ثُمَّ أكملت بأعين ناعسة ودامعة وبشفتين ترتجفان، قائلة:

- (سديم)، أنا لا أقوى على فراقك، أنا أضعف من أن أعيش اليتم مرتين. أرجوك، لا تذهب.

أجابها (سديم) وهو يمسح على رأسها بحنوٍ بالغ:

- (سحابي)، لا تقلقي، سأعود وأسترد كلَّ ما انتزعه منا ذلك المسخ، ولكنني الآن مجبرٌ على الذهاب ولا استطيع أخذك معي، سأعود وأنا أقوى! وآمل ألا يطول فراقنا على أية حال.

قالت (سحاب) وهي لا تصدق كلامه، والدموع تنهمر من قلبها قبل عينيها:

- كيف سأعيش بمفردي؟ ستكون الحياة موحشة من دونك يا أخي.

صمتت قليلا ثمّ أكملت وهيَ تُحاول استعطافه:

- وإذا احتجت مساعدتك فكيف سأصل إليك؟

- أنت تعرفين ذلك الشاب الذي كنت معه البارحة، الذي يسكن مع عائلته في جنوب القرية.. أرسلي إليّ رسالة معه، وإياك أن يعرف أحد أنّه يعرف مكاني. فقد ينال عمّنا مني ومنه.

- لكن ماذا لو أنّ أحدًا حاول خداعك، وأرسل إليك معه رسالة في طلبك، وأخبرك أن الرسالة منّي. هل تضمن ذلك الشاب إلى الأبد؟

- لا تقلقي سأخبرك برمزٍ لن يعرفه أحدٌ غيرنا.

ثم أخذ قلمًا وبدأ يكتب (S02-20/s4-4) نظرت (سحاب) إلى المكتوب وأومأت متعجبة ومستفهمة عن الذي قام بكتابته، فأخبرها (سديم) أن تلك الحروف هي أوّل حروف من أسمائهم، وأن تلك الأرقام تتضمن بعض أرقام ميلادهم، وطلب منها أن تكتب الرسالة بهذا الرمز فقط؛ لكي لا يفهم مرادها أحد، وألا ترسل إليه إلا ما يستحق المجيء لأجله.

نظرت إليه (سحاب) بقلق لمصيره وسألت مرتجفة:

- وكيف ستدير أيامك الأولى يا أخي قبل أن تجد عملًا؟

أجابها دون تردُّد:

- لا تقلقي لي الكثير من المال في رقبة عمي، وأخذت جزءًا منه من صندوقه دون أن يعلم.

***

الفصل السادس

في مكانٍ آخر، جلس (غيم) وهو يخاطب نفسه، وشعور الاستغراب مما فعله بالأمس يلازمه، ثم طرح سؤالًا على نفسه: هل أنا من الذين يسلبون الآخرين أشياءهم؟

دارَ صراعٌ مرير بين عقله وقلبه؛ فحينما يتعلق الأمر بالحبّ فغالبًا ما ينتصر القلب، وهذا ما حدثَ بالفعل مع (غيم).

استلقى بجسده الرياضي على فراشه، وسرح بخياله وهو يتذكر ملامح وجه (سحاب) القمري ثم قال (يحدث نفسه كما يفعل مجانين الحب): «الحب يأتي مرّة واحدة، وهذا الشعور لم أشعر به من قبل، لذلك فإنّه يستحق التضحية بكل شيء... نعم! هيَ تستحق أن أفعل أي شيء في سبيل الوصول إليها».

نهض وجلس على حافّة السرير، والتقط كأس الماء من الطاولة بجانبه. وبعد أن ارتشف أولَ رشفةٍ، نظر بتمعّن إلى يده المفتولة، إلى عروقها البارزة التي بدت وكأنّها خريطة. ثم خرجت الكلمات من أعماقه دون ترتيب، كما لو أنّها وُلِدت للتو:

«برغم أنني أسمر، إلّا أنّ عروق يدي تكتسي بلون عينيكِ الأخضر. من تلك المقلتين ينساب السلام... فمن أيّ عالمٍ أتيتِ يا قمر؟».

ثم نهض وهو يلتقط أنفاسه بشهيق عميق لجمعِ أكبرِ قدرٍ ممكنٍ من الهواء النقيّ، حيث اتّجه نحو النافذة، وبدأ ينظر نحو السماء مسترجعًا ما حدث في الآونة الأخيرة.

ابتسم بخفّة، وكأنَّ السَّماء استمعت له، وكأنَّ الكلمات صارت جسرًا يربطه بسحاب ، حتى وإن كانت المسافة بينهما ما زالت بعيدة..

لكن ما جاء إلى خاطره في تلك اللحظة كان أصعب من أي حِملٍ قد حمله في حياته، تذكّر لحظات قديمة قد حوّلت بعض أجزاء شخصيته إلى

أجزاء متآكلة. حاول بكل قوّة أن يكبح تلك الذكريات، التي لم تزُره منذ مدة طويلة، لكنّها ما جاءت الآن؛ إلا لأنّ قلبَه قد طغى على عقله.

خرج من غرفته مُتّجها نحو مكان قريب يطلُّ على بيت (سحاب)، لكنه خرج بعقله لا بقلبه هذه المرّة... كان خروجه إلى ذلك المكان ووقوفه هناك لمدة طويلة مُبَرّرًا له هو فقط... ولن يفهم أحد تصرفاته إلا إن عاش داخل عقله المشوش.

***

في مكان آخر ومن وجهة نظر أخرى كانت (سحاب) مستلقية على فراشها تحدق بسقف غُرفتها شاردة الذهن، شاخصةً ببصرِها نحو

لا شيء، تحاول الوصول إلى ما سيحدث، ولكن خيالها لم يسعفها هذه المرة، فتنهّدت وهي تشعر بعجزٍ لم تشعر به من قبل.

نهضت متجهة نحو النافذة والهواء يلاعب خصلاتِ شعرِها وهي تغمض عينيها محاولة بذلك تشتيت ذهنها، وما إن فتحت عينيها، حتى صُدِمت بوجه (غيم) يحدق بها عبر النافذة المفتوحة، فتلاقت أعينهما على مسافة لا تتجاوز المتر، حيث كان يفصل بينهما الجدار فقط، اتسعت حدقتا (سحاب) رافعةً أحد حاجبيها، والغضب يسيطر على ملامح وجهها وهي تغلق يدها ثم تفتحها وتشد قبضتها تحاول بذلك تهدئة نفسها والسيطرة على غضبها، الذي يكادُ يحرق كُلَّ شيء من حولها، وقالت بصوت مسموعٍ وغاضب:

- ما الذي تفعله هنا؟!

كان (غيم) مستمتعًا بمنظرها الغاضب ولم يكن مباليًا بما تقوله البتة فقد اكتفى بالنظر، في حين قالت (سحاب):

- أبله وأصم!

ثُمَّ وجّهت ناظريها إلى السماء قائلة: هل تختبر صبري بخلْقِك، يا الله؟

- لم أحتمل...

- ما الذي تهذي به؟!

- لم أحتمل، عندما نظرت إلى السماء، رأيت نجوم كثيرة الليلة و...

قاطعته (سحاب) قائلة:

- أنت تقف في مكان يثير الشبهة فاختصر!

قال (غيم) وهو يبتسم:

- تذكرت الشامة التي أسفل عينيكِ، ما أجملك يا فتاة! جميلة كالغيمة البيضاء ولديك شامة كالنجوم التي تزين السماء هذه الليلة، شامتُكِ حقًا تَسُرُّ الناظرين وأنا أتيت ليَسَرَّ قلبي.

كانت الدهشة تملأ عينيها وملامح وجهها قد خالطها الخجل، ولكنها أغمضت عينيها ونفضت رأسها مستعدةً لشنّ الهجوم عليه، قائلة:

- كم أشتَهي أن أصفعك على وجهك الشنيع، ولكنّ أخلاقي تمنعني من ذلك! ارحل من هنا قبل أن يراك أحدٌ!

واصل النظر إليها بتأمُّل مبتسمًا, وعيناه السوداوان تتلألآن وكأنّه في عالم آخر، متجاهلًا حديثها دون وعي منه، قاطعت (سحاب) حبل تأمُّلاته وهي تلوح بيدها أمام وجهه، قائلة:

- ألا تسمعني أيها الأصم؟ هييه!

ولكنّه لم يكن يبالي بما تقوله... فقط نظر إليها بصمت، ثم قال:

- دعيني أكمل.

- تكمل ماذا؟ أيها ال...

- أريد إكمال حفظ تفاصيل وجهك لتترسخ بقلبي وعقلي حتى تكون ذخيرة للّحظات التي لا أكون فيها بجانبك. فمنذ قليل، واجهتُ صعوبة

بتذكر كافة تفاصيل وجهك.

وصمت لثوانٍ، ثم قال:

- لقد اكتشفت شيئًا جديدًا.

ثم أشار بسبّابته نحو وجهها، قائلًا:

- كُنت قد ظننت أنَّكِ تملكين شامة واحدة، ولكن اتضح لي أنكِ تملكين كثيرًا من النجوم...

أجابت (سحاب) باندفاع وبتعابير وجهٍ ساخرة:

- كُفَّ عن ذلك الهراء! أتظن أن كلامك المعسول يُحدث فرقًا لدي؟!

ثم أتبعث متسائلة:

- أخبزني الآن ما الذي تنوي فعله؟ وماذا تريد مني؟

- لا تنسي أنِّي خطيبك، ولي الحق في أن آتي متى أشاء.

- وهل تظن أنَّ عمي (سامين) إن رآك هنا سيكون فرحا بك؟ سيقتلك وإن كنت زوجي، فهذه ليست وضعية شريفة تقابل بها خطيبتك المغصوبة.

تمكَّنت (سحاب) بكلمتها الأخيرة أن تبعثر ملامح (غيم) الفَرِحَة.. شعر بانقباض في داخله، فعدَّل من كلامه وقال موضحًا:

- لا نيَّة لي في أن أغصبك على شيء، ولست مستعدًا لفعل أي شيء إن لم تكوني راضية به.

قالت (سحاب) وهي تغلق النافذة في وجهه:

- إذن.. غادر من هنا.

مدَّ (غيم) يده نحو النافذة يؤخِّر إغلاقها ليكسب مزيدًا من الوقت محاولًا أن يأخذ منها أي وعد بلقاء جديد، وقال:

- انتظري... إن كان هذا المكان غير مناسبٍ لك، فسأراك غدًا في المكان

الذي تلاقينا فيه أول مرة.

لم تجب (سحاب) عليه وأغلقت النافذة بقوة.

الفصل السابع

في الصباح الباكر، وقبل أن ترسل الشمس نفحاتها على أديم الأرض، خرجت (سحاب) متردّدة نحو ذلك المكان الذي ستقابل فيه (غيم).

وصلت إلى الهضبة، ووقفت تراقب الحقول من بعيد مستمتعة بأصوات العصافير المتنوعة، استمرّت على هذه الحال إلى أن كسر تلك الترانيم صوتُ خفقِ نعالِ أحدهم، فنظرت في اتّجاه الصوت، فكان هو...

تبسّم (غيم) عند رؤيتها، كانت «صباح الخير» شعورًا حقيقيًا أكثر من كونها كلمة تقال في تلك اللحظة. كانت (سحاب) قد نهضت من مكانها وبدأت تنفض الغبار عن ملابسها، كانت ترتدي فستانًا أسودَ ينسدل بخفة حتى أسفل ركبتيها، يتوسط خصرها حزامٌ بلون البنّ المحروق، وتضع قطعة من قماش الدانتيل لتغطي جزءًا من شعرها، وتنتعل حذاء جلديًا أثقلته الطرقات وبدا تعبُ الأيام واضحًا على أطرافه.

كان (غيم) حينها يظن أنّها وقفت لتحييه، لكنّها بغرابة أدارت ظهرها وهمّت بالمغادرة. فنادى عليها (غيم):

- سحاب... لم نتحدّث بعد. إلى أين أنت ذاهبة؟

أجابت (سحاب) بطريقة جديّة لكنها مصطنعة:

- ومَن قال بأني جئت إلى هنا لنتحدث؟

نظر (غيم) إلى المكان من حولها، ثم ابتسم ابتسامة غريبة وقال:

- لا أجد معك حصانك. فلِمَ أنت هنا إذن؟

- وما شأنك أنت؟؟

- لا يهم إن كنت هنا من أجلي أم لا، المهم أننا هنا، وهذه فرصة سانحة لنتحدث.

صمتت (سحاب) طويلًا وهي تفكر مترددة، ثم أكملت عنادها رغم

فضولها، وأكملت طريقها، فأمسكها (غيم) من ذراعها ليوقفها، وهنا كانت لـ(سحاب) ردة فعل غريبة وسريعة، أمسكت بإصبعه ولفته باتجاه معاكس، فانقلب وجه (غيم) الرجولي إلى وجه ضعيف يعتصر من الألم، لكنه -رغم ذلك- لم يخرج أي صراخ أو تأوه. وبعد عدة ثوان قاسية على (غيم) بين ألم وتكبُر على الألم، أفلتت (سحاب) إصبعه. فقال غيم وهو يتظاهر بصلابته:

- لماذا تقومين بكل هذا العنف؟ ربما ما حدث غير طبيعي بالنسبة لك، ولكنْ هذا الأسلوب لا يليق بفتاةٍ جميلةٍ مثلك، أنت تذكرينني بسعيدٍ؛ كان أحد أصدقائي بالجيش.

ثم ضحك ضحكة قصيرة أثارت غضبها، فقالت بحنق:

- لن أحتمل! سأبرحك ضربًا. هيا، غادر على الفور!

لا بأس، أنتِ جميلة، حتى عندما تغضبين، وإن كنتِ أحد أصدقائي في الجيش، فالمحب لا تشكل تلك الأشياء فرقًا لديه.

ثُمَّ أخذ يرمقُ (سحاب) بنظراته التي تثير غضبها، ولكنها هذه المرة لم تفعل، إنَّما نظرت إليه وهي تهز رأسها بنظرة ساخرة مليئة بالشفقة، قائلة:

- حبكم يكمُن في أعينكم لا بقلوبكم يا معشر الرجال.

قال (غيم)؛ ليستزيد منها:

- وما الفرق بيننا وبينكن؟

تنهدت، ثم أجابت وهي تنظر نحو الأفق بعيدًا:

- النساء، حُبُّهنَّ مختلفٌ تمامًا، يُحببنَ ما يسمعنه، ولهذا نرى الرجال يتغنون بجمال المرأة ويتفننون بالغزل، بينما النساء يتحدثن عما قيل لهن، عن تلك الكلمات التي غمرتهن بها ألسنة المحبين. وهكذا تُخدع النساء من مسامعهن، كما يُخدع الرجال من أعينهم..

صمتت برهة ثم قالت مستاءة:

- كم هذا مؤسف!

- لكني تحدثت وتغزلت كثيرًا، ولم أنل منكِ شيئًا.

- أخبرتك عن النساء... ليس عن (سحاب)، فأنا لست مثلهن ولا يستهويني ذلك النفاق الذي أُخفيَ خلف أقنعه الكلام المعسول، فأنا لست بحاجةٍ إليه.

اقترب منها بخفة، كأنه يحاول انتشال انتباهها من صمتها، ثم نظر إليها بعينين فيهما شيء من التحدي وشيء من الرجاء، ثم قال:

- و(سحاب)، ما الذي يستهويها؟ ما الذي يجذبكِ، حقًّا؟

نظرت إليه بهدوء، لا فتور في نظرتها ولا اندفاع ... فقط وعي عميق يسكن ملامحها، وقالت:

- ليس الكلام، ولا تلك الأفعال التي يتغنّى بها البعض ظنًّا منهم أنهم بلغوا ذروة النضج والوعي... فالكلمات يستطيع أي عقل ماكر أن يختارها بعناية، والأفعال يمكن ترتيبها وتمثيلها ببراعة حتى تُقنِع، لكن ردة الفعل... تلك لا تصنع. لا يمكن تزييف نظرة عين صادقة ولا يمكن اختلاق لهفة تهرب دون وعي، ردة الفعل نابعة من الداخل، من مكان لا تصل إليه الأقنعة.

ثم تنهدت وقالت باختصار:

- أنا لا أصدق الكلام، ولا أطمئن للأفعال، أنا أُصغي لردّة الفعل، فهي الحقيقة التي لا غبار عليها. فالحقيقة لا تُقال.. بل تُرى. ولمشاعري حقٌّ أيضًا. أهتمُّ لِمَا أشعر به مع الأشخاص، وأستطيع تمييز ما أشعر به بجانبهم، وأعلم حينها ما إن كانوا سيئين أم صالحين.

لم يقاطعها (غيم) أبدًا، رغم أنّها قد أسهبت في حديث لا يمسه هو، لكن حديثها المطوّل هذا كان بالنسبة لـ(غيم) بادرة خير، يمكنه بعدها أن يولّد ألف حديث، فقال لها رغم أنه كان يبحث عن نفي لجملته:

- أظنُّ أن إجابتكِ واضحة، أنا من السيئين بالنسبة لكِ!

على الرغم من أنّ (سحاب) ترى الراحة والنظافة الروحية في وجهه إلّا أنّها نفت مشاعرها تلك:

- فما الذي جعلك تتقدم لخطبة فتاة لا تُريدك؟ والأدهى من ذلك مخطوبة لرجل غيرك؟

قال (غيم)، وقد رفع أحد حاجبيه:

- لا أظن أنكِ كنتِ تريدين الارتباط به، فلماذا كل هذا الغضب؟

- وما شأنُكَ أنت؟! لربما كُنت أحبه؟!

شعر (غيم) بالغيرة تتسلّل إلى قلبه، وبدأت ملامح وجهه تصبح أكثر جدية، قائلًا:

- وما الذي وجدتِ بذلك البدين الذي يشبه البرميل لتحبيه؟!

- وما شأنك؟ لن أبرّر لك!

- هو لا يستحق أن تحبيه، فالمحب يُدافع ويقاتل لآخر نفس عمن يحب مهما كلّفه الأمر، والجبناء لا مكان لهم في ساحة معركة الحُب. ومن المؤسف أنّ من تحبين جبانٌ وأحمق أيضًا... هوَ لا يستحقُ حُبكِ البتة!

ثم قال محدثًا نفسه بصوت خافت: لقد استحق ما فعلته به... كان علي أن أفجّر رأسه أيضًا...

صدمت (سحاب) ممّا قال، لقد علمت أنّ أحدًا قد تعدّى على (سالم) في ذلك اليوم الذي كان من المفترض أن تُخطبَ إليه فيه، فسألت؛ تبحث عن تأكيد:

- ماذا قلت؟ هل أنت من تعارك مع (سالم)؟!

- سأذهب الآن، وسنتحدث لاحقًا.

- أقسم عليكَ ألّا تذهب إلى أن تخبرني بما جرى بينكما!

الفصل الثامن

لم يتردد (غيم) في إخبارها عمّا حدث، كان يعلم أنّ ما فعله كان لأجلها هي فقط، اتّجه نحو شجرة قريبة واستظل تحتها جالسًا وبدأ يحكي لها ما حدث...

«بعد أن تركتُك في ذلك اليوم، كان لديّ هدفٌ واحدٌ هو أنْ أعرف (من أنتِ؟)، وكان الهدف ساميًا لا تشوبه شائبة، إن كانت خطبتك دون رضاك فسأتولى إنهاءها بأيّ شكلٍ من الأشكال.

تجوَّلتُ في القرية، بين وجوه أرى منها مَن يحاول تذكر من أنا، وبين من ذاكرته لم تسعفه لمعرفتي؛ كان غيابي عن القرية طويلًا، حتى إنني لم أكن أعرف الكثيرين ممَّن مررت بهم.

توقفتُ عند أحد الرجال الذين كانوا من عمر والدي، عرفته جيدًا رغم كلّ تلك السنين وكل تلك التجاعيد لتي رسمت على وجهه. سألني وكأنَّه رأى والدي بدلًا مني:

- أيها الشقيّ، تعال وعانقني، أشمُّ بك رائحة صديق قديم.

كان كأن الزمن قد توقَّف عند آخر مرة رأى بها والدي. شعرت بثقل العناق الذي ألهبتني حرارته، لكني ابتسمت، محاولًا إخفاء التموجات التي تشق صدري. فقال بعد أن أفلتني من قبضة سواعده:

- كيف حالك يا بني، متى جئت ولماذا؟؟

- الحمد لله، أتيت البارحة للعمل مع عائلة (سالار).

تلك الكلمة علقت في حلقي كشوكة. ثم استدرتُ وأنا أختلس النظر نحو الطريق الترابي الذي اختفيتِ عنده. وأكملت مستفسرًا:

- أريد يا عم أن أسألك عن شيءٍ غريب... رأيت فتاة تمتطي فرسًا أبيضَ، جاءت من الهضبة ثم اختفت وكأنها تبخرت في ذلك الاتجاه.

كنت أشير بإصبعي نحو الأفق حيث تلاشت صورتك الأخيرة، لكنّه كان ينظر إلى عيني بدلًا من أن ينظر إلى أين أشير، كأنّه يقرأ في عينيّ سرًّا لم أجرؤ على البوح به.. تنهد، ثم أجاب بلهجة العارف بكل ما تخفيه هذه البلدة الصغيرة:

- إنّها (سحاب)... الابنة الوحيدة لعائلة (سالار). تعيش مع عمها منذ أن مات أبوها. وغدًا سيكون عقد قرانها على (سالم).

(سالم)!! تفجر الاسم كبركان في رأسي. شعرت بقبضة من نار تُضيّق حول قلبي، لكنني أجبته بابتسامة جافة، كتلك التي تسبق العاصفة:

- حسنًا يا عم... سعدت بلقائك.

لم يستطع قراءة العاصفة التي كانت تدور في داخلي. ودّعني ببراءة، طالبًا أنّ أبلغ أبي سلامَه، بينما كنت أخطو بعيدًا، وأنا أحمل في جيبي سكين الغضب، وفي قلبي صورتك التي لا تفارقني.

لم تمضِ ساعات حتى اجتاحتني النيران وأنا وسط البلدة، حيث يجمتع الناس حولي كاجتماع النحل حول خليته، وجدت نفسي أطحن بقبضتي وجه (سالم)، ذلك القصير البدين، صاحب الشارب الكثيف والعينين الغائرتين. الدم كان ينزف من وجهه، لكني لم أكن أرى سوى ظل الفرس الأبيض يلوح في مخيلتي.

- لن ينتهي الأمر..

صرخت وأنا أهوي عليه بضرباتٍ كالمطرقة، بينما يحاول الجيران كبح جماحي :

- ستُحاسب على فعلتك هذه، أيها الأحمق.

هززت كتفي ساخرًا، ثم همست في أذنه بكلماتٍ كالسمّ:

- إن لم تذهب غدًا لتنهي خطبتك، فسأكشف لعائلة (سالار) كلَّ شيء: سرقات أبيك، وتلاعبك بالقوانين، وكيف كنت تسرب أخبارهم المالية لنا

مقابل المال... وسنُطرَد من البلدة كالكلب.

ابتلع ريقه، وعيناه تتسعان رعبًا... تركته هناك جريحًا مهينًا، بينما كنت أمشي بعيدًا وأنا أضحك في سري».

***

أنهى (غيم) قصّ ما حدث على (سحاب)، كان ظاهرًا من طريقة كلامه أنّه فخورٌ بما قام به، لكنّ ملامح (سحاب) كانت عكس ذلك تمامًا. حاول أن يستعطفها بسؤاله:

- والآن، هل ما زلتِ تعتقدين أن خطيبك يستحقّك؟

كان وجهها متجهّمًا لا يمكن تفسيره، فقد شعرت بأنّ (غيم) يشبه عمّها كثيرًا، وقالت وهي تسير مبتعدة عنه:

- أنت أسوأ منه... أنت تسلب الناس أشياءهم ولست تبالي بمشاعر الآخرين! أغرُب عن وجهي، لا أريد أن أراك مرّة أخرى!

قال (غيم) وهو يحاول إيقافها:

- انتظري قليلًا! صدقيني لستُ كما تظنين! أنا على علمٍ بكل شيءٍ عنكِ وعن حياتك في هذا المنزل، وأعلم أنّك لا تحبين ذلك البرميل!

صدمت (سحاب) ممّا سمعته؛ فهي لا تريدُ أنْ يعلم أحدٌ بما تعيشه، ولكنّها أخفت مشاعر الصدمة داخلها، وقالت متظاهرةً عدم الاهتمام وهي تقلّد طريقة كلامه:

- (سالم)... اسمه (سالم)!

قالت جملتها وغادرت مسرعة، والتقط (غيم) أنفاسه بصعوبة، وعيناه ترمي شعلات من النار على هيئة نظرات، ويشد قبضة يده، ولم ينطق بشيء.

الفصل التاسع

بعد يومين، ذهبت (سحاب) نحو الإسطبل ثم اقتربت من حصانها (ماقي) وراحت تمسح رأسه بيدها الحنونة، وبيدها الأخرى كانت تطعمه من الجزر الذي يحبه.

ثمَّ أصغت بأذنيها لتسمع خطوات أحدٍ ما، يأتي من ورائها.. ابتلعت ريقها، وشعرت بشخصٍ ما، يقف خلفَها، وبدأت نبضاتُ قلبِها تتسارع فليس هنالك أحدٌ يأتي إلى هذا المكان في مثل هذا الوقت سواها. حاولت أن تخرج من الإسطبل، ولكن بسرعة كبيرة مِن ذلك الشخص وضع يده على فمها؛ محاولًا منعها من الصراخ، وبيده الأخرى ثبّت يديها لمنعها من ضربه.. ولكن هذا لم يوقف (سحاب) فقامت بضربه بقدمها على ساقه السفلي؛ فخرَّ على وجهه يتلوَّى من الألم، وما إن رأت وجهه حتى صرخت غير مصدقة:

- (سديم)! أخي؟! كنتُ أعلم أنك ستأتي.

ارتمت بجانبه تحتضنه بقوة والدموع تتابعث على وجنتيها، قال (سديم) وهو يحتضنها:

- لقد شللتِ ساقي.

- لا زلت تفعل الحركات ذاتها، وها قد دفعتْ ساقُك الثمنَ غاليًا.

ابتسم (سديم) وهو يشعر بشيء من الراحة رغم الألم الذي ينتابه، وقال:

- ضربَتُكِ هذه تشير إلى أنني قد تركت خلفي أختًا قويَّة.

- لقد اشتقتُ إليكَ كثيرًا، كم كبرتَ يا أخي!

- وأنتِ ما زلْتِ شبرًا ونصفًا.

ابتسمت (سحاب) وهما ينهضان من مكانهما، وقد اغرورقت عيونهما بالدموع، كانت تسحبه من يده ليتبعها، وقالت:

- أصبحت تُشبه والدي... لماذا لم تأتِ كلَّ تلك السنوات، لدي الكثير لأخبرك

به!

- (سحاب)... انتظري. لا أريد أن يراني ذلك المسخ الآن؛ لكيلا تفسد المفاجأة التي حضرتها له.

ثم ألقى ابتسامة نصر.. قالت (سحاب) بصوتٍ يغمرهُ السعادة:

- هل حققت ما خططت له؟ هل ستفعلها؟

أومأ (سديم) برأسه إيجابًا، فأردفت (سحاب) قائلة:

- ولكن يوجد أمر هامٌ يجب أن أخبرك به.

قال (سديم) وهو يمسح على رأسها بحنية، وابتسامته العريضة تغزو وجهه، كانت ابتسامة تجمع بين الحنين والحسرة:

- عليّ أن أبتعد الآن، وسأعود عندما يغادر. لا أريد أن أفسد كل شيء.

هزت (سحاب) رأسها إيجابًا، وقالت:

- لم أغلق النافذة تحسُبًا لقدومك أنت ووالدي.

ومن ثَمَّ تبادلا تلك الابتسامة ذاتها، ابتسامةً تجمع بين الحنين والحسرة.

***

ابتعد (سديم) وجلس في مكان يطل على المنزل وهو يترصَّدُ خروج عمه، وليست سوى دقائق حتى رآه يخرج مبتعدًا نحو الحقول، اتَّجه سريعًا نحو غرفة (سحاب) متجاهلًا الباب، فقفز من النافذة ليصبح في حجرتها، كانت تقف منتظرةً دخوله، فابتسمت وهي تراقب رشاقته، قالت وهي تُربِّت على كتفه:

- لقد تَفَطَّرَ قلبي شوقًا إليك.

ثم انحنت إليه وبعينينِ دامعتين، دسَّت رأسَها بين ضلوعه، وأكملت كلامها مع شهقات كانت تبعثر كلماتها:

- أتعلم أنني في آخر فترة لم أكن أتتوق للانتقام بقدر تتوقي لرؤيتك... إنني في احتياجٍ شديد للشعور بأنْ لديّ شخصًا أستند عليه.

قال (سديم) وهو يمسح على رأسها بحنو:

- ولكنّي أعلم أنّ (سحاب) قوية، ولا تحتاج إلى أحد.

- (سحاب) قوية، ولكنها لم تُعُد تقوى على فراقك. كان غيابك استنصالًا لِمَا تبقّى في روحي من أمل.

جلسا طويلًا، وكانت سحاب تسرد كلّ ما حدث من الألف إلى الياء. ولم تكن تتوقّع أن تفوق رَدّةُ فعلِ سديم كلَّ تصوُّراتها، إذ قالت:

كنتُ أنتظر عودتك بفارغ الصبر، وكنتُ أراك منقذي وملاذي، فكيف أصبحتَ الآن جزءًا من خطّتهم لطمس وجودي؟! إنّ ما تسمُّونه قفصًا ذهبيًا ليس سوى سجنٍ يأسر الأرواح!

ثم نهضت مبتعدةً عنه، وصوتها الخافت يحمل مرارةً وأسى:

لا يقتصر سجنُ المرء على جدرانٍ ثلاثةٍ، والرابع قضبانٌ حديديّة؛ فثمّة مَن يُسجَن من إصبعه البِنصر... فيا لها من معاناة!

***

أجابها (سديم) محاولًا تهدئتها:

- (سحاب)، أرجوكِ اهدئي، فالأمر ليس كما تظنين. أنا أيضًا، ذهشت من كلامك، ولم أخطط مع (غيم) كل هذا. وسأتحدث معه لاحقًا، ولكن ما أريدكِ أن تعرفيه أنّه ليس بالشخصِ السيئ كما تظنين. عندما ذهبت إلى المدينة ولا علم لي عن الحياة هناك، هو من مدّ لي يد العون.

صمت قليلًا ثم اردف قائلًا بنبرة حزن وشفقة:

- وأيضًا، يا (سحابي)، لقد عاش ذات الطفولة التي عشناها؛ بمعنى أننا لسنا شركاء عملٍ فحسب، إنّما يجمعنا القدر البائس نفسه. وهذه من أقدار الله، وأنا على يقينٍ بأنكِ تؤمنين بذلك. (غيم) صديقٌ جيد، ولا شكّ عندي بأنّه سيكون زوجًا جيّدًا أيضًا، ولكن مصير هذا الأمر لا أحد يحدده سواك، وأنا أضمن لكِ ذلك.

لفت انتباه (سحاب) ذِكرُ (سديم) لطفولة (غيم)، ولكن هذا لا يغير شعورها بالاستفزاز منه، وبأنها لا تريد الزواج عمومًا. تنهدت (سحاب) وقالت:

- (سديم)، كل ما ذكرته هو مقياس لنقاء الشخص، وليس مقياسًا للزَّواج.

قال (سديم) بابتسامة حنونة وتفهُّم وهو يمسحُ بيديه على رأسها:

- كما تشائين، ولكن ما أريده منك أن تنتظري قليلًا لإنهاء ما خططنا لأجله، ومن ثَمَّ تفكري بهذا لاحقًا.

ثم توقَّف، وقال مكملًا كلامه:

- أما الآن.. فيجب عليَّ الذهاب لنكمل من حيث توقفنا.

الفصل العاشر

في المساء، كان (سديم) يجلس مع صديقه الأقرب إلى قلبه (غيم)، في مكتبه الذي اشتراه، ليبدأ به ما كان ينوي عمله في هذه البلدة، قال (غيم) متسائلًا:

- لماذا لم تخبرني بمجيئك؟ لم يكن من ضمن الخطة أن تأتي الآن.

- توجّب علي المجيء ... لقد حدثَ أمر طارئ، أم أنك لستَ مسروزًا من رؤيتي؟

- ما الذي تقوله أيها الأحمق؟! سألتك فقط لأنني دُهشت عند رؤيتك.

نظر (سديم) إلى (غيم) نظرةً تحمل معها كثيرًا من الأسئلة، وقال وهو يرفع حاجبيه:

- أدُهِشت لرؤيتي، أم أنك قد خشيت أن أفسد عليك خططك الجديدة؟

سمع (غيم) تلك الكلمات فبدا عليه التوتر، وتفشَّت ملامح الخجل والارتباك في وجهه. كان يخشى من أن يغضب رفيق عمره عليه وأن يَظهَرَ أمامَه بموضع الخسيس، وراح يبرّر قائلًا:

- (سديم)، أرجوك لا تغضب، يمكنني أن أشرح لك. صدقني عندما رأيتها أوّل مَرَّة لم أكن أعلم أنها شقيقتك.

قال (سديم) وهو يستدير بظهره عنه:

- لم أتوقع هذا.

ردَّ (غيم) بنبرة هادئة وملامح تبرّر موقفه:

- أرجوك، افهمني، أنا لم أتوقع، أيضًا، لم أتوقع أن...

قاطعه (سديم) قائلًا:

- ربما الحُب قد يعمي بصيرة المرء، ويخرجه من إطار ذاته، ويحطم

جميع المقاييس والقيود والحدود التي بناها للحفاظ على نفسه.

دهش (غيم) مما سمعه من (سديم) وملأ قلبه الكثير من الراحة والفرح، وتحدث وعيناه تلمعان:

- هل هذا يعني بأنّك تفهمني؟!

- الأصدقاء الحقيقيون، يتفهم بعضهم البعض، وإن عجزوا عن ذلك، صنعوا الأعذار.

- ألست غاضبًا مني؟ ألن تبرحني ضربًا؟!

- لو كنت غاضبًا، لما رأيتني بهذا الهدوء. أمّا بالنسبة للضرب فلم نعد صغارًا أم أنك تود تجربة حظك مَرّة أخرى.

- في الحقيقة أود ذلك، ففي كل مَرّة تنتهي اللعبة بفوزك، لعل الفوز يكون من نصيبي هذه المرة. كما ترى، لقد اجتهدت في التمارين الرياضية في الفترة الماضية.

- أعِدُك بأني سأبرحك ضربًا عندما نعود إلى المدينة بصفتنا مالكي شركة (سالار)، بإذن الله.

ثم ربّت على كتفه وهو يغادر المكتب.

***

الفصل الحادي عشر

مرت الأيام، ورغم أنّ (غيم) كان يتجنّب مضايقة (سحاب) بتقرُبه، إلّا أنّه كان ملاصقًا لعمّها، ليتناقش معه في شؤون العمل. وفي يوم من الأيام طلب (سامين) من (غيم) أنْ يسعي لتطوير تجارته وأن يعيد له علاقاته ببعض المنافسين الذين قد خسرهم وخسر ثقتهم بسبب جشعه ومعاملته السيئة معهم، فوافق (غيم) واقترح عليه أن يشتري منه حصصه في المشاريع التي يريد منه تطويرها لكي يقيم صفقات باسمه بدلًا من أن تكون باسم (سامين)، فوافق العم (سامين) فورًا.

كان من السهل على (غيم) أن يكسب ثقة العم (سامين)، وأن ينقل أغلب أمواله وممتلكاته باسمه، والآن حان دور (سديم) ليتدخل.

في الصباح اجتمع (غيم) بـ(سديم) ليتناقشا فيما آلت إليه خطتهما. وقبل أن يدخلا إلى اجتماعهما الأوّل مع كبار مسؤولي شركة (سالار)، وقف (غيم) يحدّق في رفيقه مذهولًا، لا يكاد يعرف وجهه.

كان (سديم) يرتدي زيًّا غريبًا لا يوحي بأنه من هذه البلاد: معطفًا فضفاضًا ذا ألوان معتمة، وقبعة عريضة الحافة تخفي نصف وجهه في الظل. ولحيته التي كان دائمًا أشعث بها، صارت الآن طويلةً ومرتبة، وكأنّه رجلٌ آخر تمامًا.

قال (غيم) مندهشا:

- ما هذا الذي ترتديه؟ ولماذا غيرت مظهرك بهذا الشكل؟!

أمال (سديم) رأسه قليلًا، وابتسم من تحت ظل القبعة، ثم أجاب بصوت هادئ:

- لا أريد أن أكشف هويتي لعمي من أوّل يوم.

ثم استوى في وقفته، وسأل مستطلعًا:

- أكلَ شيء على ما يُرام؟

أجابه (غيم) بثقة عالية:

- كلُ شيء يسيرُ حسبما خططنا له، سحبتُ البساطَ من تحت ذلك الجشع، ولم يَعُد يملك إلا الفتات، والآن إن قررنا تركه فسيعلنُ إفلاسه.

قال (سديم) وهو يهز رأسه بتعجب:

- وكيف ستقوم بإدخالي معك؟

- عندما عقدنا اجتماعًا البارحة، أخبرته بأنني سأجلب أفضل المسؤولين من شركتنا في المدينة إلى هنا ليتولى إدارة شركة (سالار). فوافق مباشرةً بكل سذاجة.

- وهل أخبرته باسمي؟

- بالطبع لا، ستكون مفاجئة له كما رغبتَ.

اقتربا من مكان الاجتماع، قال (سديم) وهو يحمل داخله شعورَ العزَّةِ والفخرِ:

- متحمسٌ لأرى ملامح الصَّدمة على وجهه حينما يراني.

***

ذهب (غيم) نحو قاعة الاجتماع ودخل أولًا، بينما ظل (سديم) في الخارج. رحَّبَ الجميع به، وشكروه على ما قدَّمه من منفعة للشركة، وإنقاذها من التدهور.. كان كل ذلك الإطراء لأنَّ (غيم) أصبح المالك الأول لأكثر فروع شركة (سالار)، كان خطابُ (غيم) محفِّزًا وجريئًا على الجميع.

قاطع حديثه (سامين) قائلًا، وهو يعدل ياقته بكل فخرٍ وعزَّة وقد ظهر الغرور على وجهه:

- علينا جميعا أن نشكرَك، فنحن ممتنُون لوجودك ضمن فريقنا، ونأمل أن نحقق أعمالًا ناجحة معًا.

- وأنا أيضًا، مسرورٌ وممتنٌ جدًا لوجودي ضمن فريقكم؛ فريق شركة سالار.

نظر إلى وجوههم سريعًا ثم تنحنح وأردف قائلًا:

- أمّا الآن فأودُّ أنْ أقدّم لكم المدير التنفيذي الجديد وذراعي اليمنى لشركة (سالار).

وما إنْ أنهى (غيم) جملته تلك، حتى بدأ الجميع بالتصفيق، وحينها دخل (سديم) بكامل أناقته وحضوره الغريب واللافت للأعين، ثم تقدم نحو عمه وهو يمد يده للمصافحة، قائلًا:

- أظن أنّك العم (سامين) المشهور ومَن كنت صاحب شركة (سالار) قبل أن يشتريها (غيم).

ثم صافحه وهو يشُدُّ على يده بعنفٍ وينظر في عينيه بحدَّةٍ وحقد وعتاب. ضُعق العم (سامين) عندما رأى (سديم) عن قرب، لقد تعرف عليه بسهولة لأنَّ شكله كان مُشابهًا لأخيه الراحل في شبابه بشكلٍ مرعب لـ(سامين)، كأنَّه بثَّ ذلك الرعب في قلبه. ابتلع العم (سامين) ريقه محاولًا تمالك نفسه وضبط مشاعره، وقال وهو يخفي الريبة والقلق اللذين يحاصرانه ومحاولًا التمثيل بعد التعرف على (سديم):

- أهلا بك أيُها المسؤول...

- أهلًا بالعم (سامين)، تشرَّفتُ بمعرفتك.

كان واضحًا للعم (سامين) أنَّ (سديم) يحاول ألَّا تُعرَف هويته، فقال وهو يفكر بمخرج من هذا البلاء الذي عاد إليه:

- أعتقد أنَّ لدينا الكثير لنقوله، ولكن يجب أن نتحدَّث به لاحقًا... لنلتقي في الهضبة، فالجو جميل اليوم، ولا بأس أن ترى حقول القطن، فلقد بدأت براعم القطن تتفتح.

قال العمُّ (سامين) كلماته تلك وهو ينفث شفَّهُ نحو (سديم)، وينظر في عينيه دون أن ترمش جفونه ليستفزه ويقرأ عينيه. رد (سديم) وبداخله كميةٌ هائلةٌ من مشاعر النصر والفرح لأنّه - أخيرًا - سينتصر وسيأخذ حق والده، غافلًا عن تعرُّف عمه عليه الذي ربما يحدث في أية لحظة:

- سآتي، وبكل سرور.

خرج الجميع من الشركة بعد أن عقدوا عقد استلام (سديم) لمنصبه، وأخذ (سديم) نَفَسًا عميقًا وتوجه إلى المكان الذي قضى به كل ذكريات طفولته: صورة والده التي لا تفارقه، وصدى صوته الذي بدا له كأنه يتسرّب في كلِّ زاوية من زوايا المكان، عندما كانا يجريان بلهفة ويستقبلهم بحضنٍ حنون هو وشقيقته بعد انتهائهم من اللهو واللعب والكثير من اللحظات السعيدة التي تعصِر قلبه ألمًا.. استجمع قواه ورفع رأسه نحو السماء قائلًا:

- سآخذ كل ما انتزعه منك عنوة، سآخذ حقنا، يا أبي... لا تقلق.

وصل (سديم) إلى منزلٍ كبير ذي طرازٍ ريفي جميل، وكانت أمامه حديقة كبيره مليئة بالأشجار والزهور في كل مكان، استقبله العم (سامين) بكرم زائف، ثم أشار بيديه ليدخل إليه فقال (سامين) متسائلًا:

- أأعجبك المنزل؟

نظر (سديم) إلى المكان الذي عاش فيه الكثير من لحظاته السعيدة مع والده، والذي كان يأتي بهم إليه بكثرة، وتحيطه الكثير من مشاعر الحسرة والحنين لحياته السابقة، قال (سديم) في نفسه: الحنين إلى الماضي كالإعصار يزعزع القلوب، ويُخلّ توازنها؛ فلا يداوي جراح أرواحنا إلا البكاء.

وسقطت دمعة من عينيه حاملةً الكثير من الحزن، والحسرة، والشوق. ثم حاول مسحها بسرعة البرق، وكور قبضة يده بعنف فبرزت عروق يده التي أوشكت على الانفجار، وأخذ نفسًا عميقًا وهو يحاول ترتيب الكلمات مع ضبط نبرة صوته:

- جميلٌ جدًا، وفيه طاقة دفءٍ عجيبة.

ثم رمقه (سامين) بنظراته المليئة بالحقد والخبث وهو يحاول قراءة ما في داخله، ثم نهض متجهًا نحو الطاولة مشيرًا بيده نحو الطعام، قائلًا:

- تفضل إلى مائدة العشاء.

***

نهض (سديم) من على المائدة وشكر (سامين) على حسن ضيافته، كان كل شيء غريبًا ولا يفسر، كثير من التساؤلات كانت تجول في خاطره، فخاف أن يفضح أمره، فقرّر المغادرة، ولكنّ عمّه رفض ذلك بحجة أنّ ضيافته لم تنتهِ بعد.

ابتسم العم وهو يُحدّق بعيني (سديم)، وقال بخبث:

- يوجد إطلالة في شرفة المنزل يجب أن تراها، ومن ثم تستطيع الذهاب.

أومأ (سديم) برأسه إيجابًا. وأشار العم (سامين) بيديه، نحو الشرفة وذهبا معا إلى مكان الإطلالة التي تحدث عنها، وقال سديم وهو ينظر أمامه بشوق:

- حقًا كما قلت، إنها إطلالةٌ رائعة، ترى البلدة بأكملها من هنا وتظهر المنازل بصورة مصغرة، ولكن الله يعلم ما يخفيه ساكنوها من همومٍ وأماني.

ثم نظر إلى (سامين) وأردف قائلًا:

- أعظم ما يستطيع المرء الحصول عليه هو منزل يغمره بدفء العائلة... أن يكون لك منزلٌ وعائلة تذهب إليهم، فتجد الأمان المنقرض في العالم الخارجي، وأن يكون لك ملاذ وملجأ، فيا لها من نعمة ... ولسوء الحظ لم ننعم بها.

قال (سامين) مؤيّدًا لكلام (سديم):

- صحيح، ولكن ليس دائمًا، فالبعض يغادر منزله للبحث عن مكانٍ يكن

ملاذًا له، ويجد فيه الأمن والاستقرار.

ثم تنهّد وهو يمشي نحو سياج السور الحديدي الذي يحيط الشرفة بأكملها ليضع يده بخفه على كتف (سديم)، وأردف قائلًا:

- مؤلمٌ أن تتوه في منزلك... في المكان الذي يجب أن تجد طمأنينتك وذاتك فيه.

نظر إليه (سديم) نظرة استغرابٍ واشمئزازٍ منه، فكيف لشخصٍ سلب حقوق أطفالٍ أن يتكلّم عن أمرٍ كهذا وبهذه الطريقة، قال (سديم):

- يبدو أنّك مليءٌ بالحكمة، وقد أصابني الفضول لسماع المزيد، ولكنْ سيكون لدينا وقتٌ آخر نتحدث به عن كل ذلك.

ثم قال (سامين) بنبرة مهمومة متجاهلًا كلامه كأن الحديث لا يعنيه:

- العائلة هي جذور المرء وتربته؛ فالإنسان كالشجرة إذا نبتت بأرضٍ صلبة وتربةٍ صالحة؛ امتدت جذورها بثبات، وكبرت براعمُها، وأثمرت أوراقُها وأزهارُها؛ أمّا إنْ نبتت في أرض قاحلة وتربة فاسدة - فأنت تعلم النتيجة، ستذبل أوراقها وتموت، وهكذا هي العائلة؛ إما تحييك وإما تميتك وأنت على قيد الحياة، وتبقى ناقصًا مبتور الجناح، تنظر إلى السماء وتحلم بالطيران، لكنْ لا شيء فيك قادر على التحليق.

ثم تنهد وكأنّه يحاول أنْ يحرّر نفسَه من سرٍّ كان ساكنًا بداخله.. ثم استدار وعيناه يخالطهما شيء من الحزن، ولكنّه لا يُظهر أي ضعف، وقال بصوت هادئ لكنّه مليء بالمرارة:

- وهذا ما حدث، لقد قتلتني عائلتي، لم يكن الموت جسديًا، بل كان في أعماقي وأشعَرُوني بالنقص، وبأني عديمُ الفائدة، وكأنّني لا أستحقُّ أن أكونَ جزءًا من عائلتهم. حتى بعد موتهم، ظل الأثر يلاحقني، وعالقًا بثنايا روحي.

ثم نظر إلى (سديم) وأكمل ببرودٍ:

- وهذا ما دفعني لقتل أخي.

اتسعت عينا (سديم) وراح يُحدّق به بحدّة، وارتجف جسده بأكمله بعد أن كان يستمع إليه بكلّ تركيز. ضعق مما سمعت أذناه، ولم ينطق بشيء، فقط سحابة من الدموع تهطل من عينيه ويداه ترتجفان بشدة. والعم (سامين) ينظر إليه بخبثٍ وابتسامة طفيفة تغزو ملامحه، وينفث الدخان من أعماق رئتيه:

- أتعلم أني لم أكن أدرك أنّ البشر يمكن أن يتحولوا لأمراضٍ تصيب الأرواح وترهقها، ولم أكن أدرك أنّ ألم الأرواح من أشدّ الأوجاع الفتّاكة في هذه الحياة. ولكن لا تطرحنا فتتفاقم وتتحول إلى أمراض بدنية، ليظهر الأمر أكثر حقيقة في عيون من يظن أننا بخير. وحينما أدركت ذلك عاهدت نفسي على أن أكون الموت الذي يأتي بعد ذلك المرض.

فسار نحوه (سديم) بخطوات ثابتة يملؤها الغضب قائلًا:

- سأقتلك هنا حيث نبتت جروحي، وحيث تركني الجميع في الظلام.

ثم بدأت ضحكاته تتعالى في المكان، وأردف قائلًا:

- يا لك من غبي كوالدك، صدق العرب حينما قالوا: «من أنجب لم يمت!». ذكّرتني بوالدك وغبائه، كان ساذجًا يظُنُّ أنّ السذاجة هي طيبة القلب!

علم حينها (سديم) أنّ عمّه قد تعرف عليه، فملأ الغضب والحزن ونار الانتقام ملامح وجهه، مما جعله يثور ويذهب نحوه مسرعًا، والتصق بياقته إلى أن أصبح قريبًا إلى سور الشرفة، ثم صرخ في وجه عمّه:

- كيف تجرؤ على ذكر أبي بتلك الألفاظ، أيها المسخ؟!

أجابه العم (سامين) بنبرة غرورٍ واستهزاء:

- أن أكون مسخًا خيرٌ لي من أكون غبيًا، ما الذي أتى بك بعد كل تلك السنوات؟ أتظن أنك قادرٌ على الانتقام؟ كم أنت غبيّ، وكما ترى، أنا الآن أقوى؟

ثم أخرج من مخبأه خنجرً وهو يحدق بعيني (سديم)، وأردف قائلًا:

- كنت الأقوى دائمًا ولن أخضع لك، أيها الطفل الصغير الغبي!

ثم أخذ يداعب وجه (سديم) بالخنجر وهو يقترب منه بخفة وخبث. قال (سديم) والدموع تنساب من عينيه حاملةً القهر والغضب مما جعله يصرخ بكل قوته قائلًا:

- كيف فعلت ذلك؟! كيف للمرء أن يقتل أخاه، أجبني كيف؟! ألِتلك الدرجة أيها القذر؟ لم أتوقع أن يكون هنالك شخصٌ بهذه القذارة!

أجابه (سامين) بنبرة هادئة وجادة، قائلًا:

- لا يوجد قذارة مقرفة أكثر من تفكير العقل البشري. لا تظن أنك شخص مثالي، أنت لم تتعرض للألم الكافي الذي يستنزف روحك إلى الحد الذي تستطيع من خلاله خلق وحشٍ ليطلق ما بداخلك من سواد، تحتاج إلى كمية هائلة من الوجع لكي تخلق شيطانًا مليئًا بالحقد والخبث... سيتحجَّر قلبُ هذا الشيطان حتى يصبحَ في هيئة كتلة من الشر، ويتجوَّل بنسختك الجديدة غير المبالية، والأنانية المتجردة من الإنسانية المتواجدة حيث الظلم والظلام.

- وأنت، أيها الشيطان، أجبني... لأجل ماذا؟ أمِنْ أجل المال؟!

قال (سامين) متعجرفًا:

- المال مفتاح القوة.

فاندفع (سديم) نحوه والتصق بياقته، وراح يخنقه بكلتا يديه، مما جعل الدماء تسيل من فمه وهو يقول بصوتٍ متقطع إثر اختناقه:

- لستُ شيطانًا! هم من صنعوا مني شيطانًا... لقد سلب أبوك مني كل شيءٍ! سلب مني كل ما يجب أن أملكه... كسب قلب والدَيَّ، ونجح بالعمل وتكوين أسرته، أمَّا أنا فلم أستطع فعل ذلك! أنا لستُ فاشلًا، ولكن هو من سلب كل ذلك منِّي.

ردَّ (سديم)، ونار الغضب تشتعل من عينيه مما جعله يقوم بخنقه بحدةٍ أكثر من ذي قبل، قائلًا:

- هل تبرّر سبب فشلك الذريع هكذا، أيها المسخ؟!

وبصوتٍ أقرب إلى البكاء ويداه ترتخيان عن عنق عمِّه:

- كيف؟ كيف استطعت قتله؟ أجبني كيف؟!

ما إن رأى العم (سامين) العاطفة تسيطر على (سديم) حتى شعر أنَّ هذه هي الفرصة التي ستقلب الموازين، وبقوةٍ ضَرَبَهُ على رأسه بقبضة يده؛ فأسقطه أرضًا، مما أشعر (سديم) بدوّار سيطر على تحكمه، ولم يستطع أن يمسك نفسه، فقال وهو يمسك رأسه متألمًا:

- سأقتلك، أيها الشيطان، سأقتلك.

اندفع العم (سامين) نحوه وهو يلكمه على وجهه، قائلًا بغضب:

- يا لك من أحمق، يجب أنْ تتوسَّل لي كي أتركك، وليس أن تتحدَّث بهذه الكلمات التي تقصر مدة بقائك حيًا!

- لا يهمني البقاء حيًا، بقدر ما يهمني أنْ أقضيَ عليك!

وفي لحظة خاطفة، لَكَمَ (سديم) عمَّه في معدته؛ فأسقطه أرضًا، واقترب منه قائلًا:

- كيف فعلتها، أيها المسخ؟! كيف قتلته، ألم يستوقفك نقاء وجهه؟! ألم يستوقفك مجرد كونه أخاك؟

فرد (سامين) بعد أن عَلَتْ قهقهته:

- أتريد أن أمثّل لك الجريمة كي تعرف كيف فعلتها؟ لا تقلق، سأفعل بك كما فعلت به، وستلقى حتفك بالطَّريقة ذاتها!

أجابه (سديم) بنبرةٍ أقرب للبكاء وكأنَّهُ يعاتبه ويبحث عن إجابةٍ تغيِّر ما

حدث:

- ألم يستوقفك وجهه الملائكي؟

فردّ عليه وهو يضحك باستهزاء:

- لا، بل كان المنظر شيّقًا حينما رأيت الخوف من الموت في عينيه!

ركله (سديم) على معدته بركبته وراح يصرخ قائلًا:

- سأقتلك! سآخذ بثأر أبي! ليس فقط لأجل ما عشناه أنا وسحاب من عنفٍ وحرمان... بل من أجل أبي... ولكي لا يكون للشيطان مكانٌ بين الإنس.

اندفع (سامين) ودفع (سديم) للوراء؛ فاختل توازنُه وتعثّر بصخرة كانت خلفه وسقط أرضًا، استغلّ (سامين) تلك اللحظة وركله على وجهه بقدمه، فانهارت قوى (سديم) إثر تلك الركلة، فوضع (سامين) قدمَه على صدر (سديم) وهو يقول مستهزءًا:

- أُعِذ تهديداتك وأنت تحت قدمي، هيا!

كان (سديم) في حالة ما بين الحلم واليقضة، كان مرتخيًا لكنّه يحمل من حرارة الروح ما يُمكّنُه من المقاومة والدفاع عن نفسه، فباغت عمَّه بسرعةٍ فائقة وثبت قدمه بيده بينما ركله بقدمه فارتمى على الأرض. وصعد (سديم) فوقه مكبّلًا حركتَه، وراح يضربُه على وجهه إلى أنْ تفجرتِ الدماءُ من أنفه، كان (سامين) يتسول منه الرحمة وهو تحت جسده يتلقّى الصفعاتِ واللكماتِ. فحاول كسب القليل من الوقت، وقال بصوتٍ متقطع إثر الضرب الذي يتعرض له:

سأخبرك عن شيء ... توقف.

توقفَ (سديم) عن الضرب، وراح ينظر إلى وجه عمِّه الملطخ بالدماء، حيث استيقظ بداخله فضولٌ عميقٌ، وكان ينتظر بفارغ الصبر ما سيقول. ولكن في تلك اللحظة، أخرج (سامين) الخنجر من مخبئه متوجهًا به نحو ظهر (سديم) ليسدد له طعنةً من الخلف، وغرز خنجره بظهره مباغتًا له.

ابتسم (سامين) وهو يرى جسد (سديم) يسقط أرضًا، قائلًا:

- سألتني منذ قليل كيف فعلتها؟ لقد فعلتها بهذا الخنجر وبالطريقة ذاتها، لكن طعنته أماتته فورًا.

تمدد (سديم) وهو يحاول التقاط أنفاسه الأخيرة، وقال والدماء تنزف من ظهره وتُخضِّبُ ثيابَه:

- ما منعك من طعني في صدري أيها الجبان؟

حاول أن يكمل كلماته، لكن الخنجر الذي انغرس في ظهره سرق ما تبقى له من قدرة على الكلام. كان صوته يُشبه صوت النزيف، وكل حرفٍ ينفلت من بين شفتيه كان يُسرِّع من نفاد قوَّتِه، ورغم ذلك، أصرَّ على أنْ يقول ما علق في قلبه قبل أن يخونه الجسد. بين الطعنة والحديث، خاض معركته الأخيرة... وبالكاد انتصر فيها على الصمت، فتابع بصوت متهدِّج:

- الغدرُ هو العمل الحقير الذي يجيده الجبناء... لكنَّني سعيدٌ لأنَّ أبي لم يرَ أخاه وهو يُخرج سلاحه في وجهه ويغرز خنجره في صدره؛ لكيلا يتألم مرتين.

لم يُبالِ (سامين) بما قاله ابن أخيه، إنما أكمل فعلته ليوجز عليه وغرز خنجره مرةً أخرى لتغادر روح (سديم) ذاهبة نحو ذلك المكان الطاهر النقي الذي لا مكان للحقد والشر فيه.

دفع جثة (سديم) بقدمه، وجثا ليعيد طعنه عدة مراتٍ في صدره، وراح يضحك بهستيرية وهو يهذي كالمجنون:

- لن يتغلَّب أحدٌ عليَّ! لن أجعلكم تأخذون شيئًا واحدًا منِّي ... أنا الأقوى هنا، وسأبقى الأقوى!

رفعَ يديه محاولًا مسح الدماء التي لطخت وجهه ثم تنهَّد، وقال:

- تبقث خطوة فقط يجب أن أفعلها.

وأخرج من جيبه كيسًا صغيرًا فيه تبغ، وأخذ يلف سجائر التبغ. ثم أخرج ولاعة وأشعل السيجارة، قائلًا:

- يا لها من رائحة جميلة، رائحة السجائر الممزوجة بدمائك، يا ابن شقيقي العزيز!

وأخذ السيجارة ليطفئها بجسد (سديم)، قائلًا:

- لم أكن أعلم أن تلك المناظر تجلب لي السعادة إلى هذا الحد!

بعد أن انتهى من فعلته التفت للوراء ليصدم بما رآه، كانت (سحاب) واقفة تنظر إليه بعينين متسعتين، متصلبة كالتمثال؛ لا تتحدث ولا تتحرك فقط تحدق به.. انتفض والدماء تملأ ثيابه والأرض من تحته، وبدأ يمشي نحوها بهدوءٍ، قائلًا:

- لم أكن أعلم بأنه هو، كنت أظنه لصًا.

ثم وضع يديه على كتفيها، وصرخ بها:

- أتسمعينني؟!

لم يكن تركيز (سحاب) عليه ولا على ما يقوله، إنما كانت تُحدِّق نحو جثة (سديم) المغطاة بالدماء، وتكاد ألَّا تتعرف عليه من سوء ما تعرض له من الضرب. قام العم (سامين) بهز أكتافها، قائلًا:

- سأخبرك بما حدث.

كانت (سحاب) في صدمة وكأن صاعقه قد مرَّت عبر جسدها فهي لا تستجيب البتة، وما إنْ تذكرتْ طيف والدها وفقدانه حتى استجاب عقلها لما يحدث، لقد فقدتْ (سديم) أيضًا... ثم دفعت يديه عنها بكل عنف، وهرعت نحو جثة (سديم) لتأخذها بحضنها وهي تصرخُ بقهرٍ، كان صراخها يعانق عنان السماء؛ لعلوه، فاغلق عمُّها أذنيه من صراخها.

راحت (سحاب) تتحسس جسم (سديم) لا تُصدِّق ما تراه - فهذه فطرتنا

البشرية، ألا تتقبل الحقائق بسهولة وخصوصًا تلك الحقائق التي لا نرغب بها- ثم قالت (سحاب) وهي تضرب خدّه بخفة محاولةً إيقاظه والدموع تملأ وجهها:

- أرجوك، استيقظ... أرجوك، لا تتركني بهذه الحياة الملينة بالوحوش وحدي! هيّا سنذهب معًا... أرجوك، انهض.

وضعت رأسها على صدره تراقب أي نبضة قد تدل على حياته، ولكنها لم تجد إلا صمتًا مُطبِقًا، وحينها أدركت حقيقة موت شقيقها، وبدأ عويلها يزداد ثم أخذت رأسه لتضعه في حضنها وهي تمسح على وجهه بخفه وهدوء، وكأنها أمٌ تخشى استيقاظ طفلها. ثم أغمضت عينيها وهي ترسم ملامحه في لوحة ذكرياتها، وقالت بصوتٍ باكٍ:

- ربّ، هل كُتب في قدري الفقدان؟

في تلك اللحظة، زلزل المكان صوت رعدٍ جعلها تسدُّ آذانها خوفًا من قوته، وبدأ المطر يهطل ويمتزج مع دموعها ودماء (سديم) التي تملأ ثيابها، ثم قالت بصوت يملؤه البكاء، مخاطبةً جثمان أخيها:

- أخي، لقد قلتُ لك بأنني لا أقوى على فراقك؟ أنا أضعف من أن أعيش اليتم مرتين!

وتضاعف صوت نحيبها وهي تعانقه العناق الأخير. كان (سامين) شاهدًا ذلك وشعر بأن شيئًا ما في قلبه تحرك، ليس حبًا لـ(سديم)، ولكن أحزنه رؤية (سحاب) وهي عاجزة ومنكسرة، وعلى الرغم من أنّه يعاملها بسوء، إلّا أنَّ وجودها في حياته كان يخفف عليه وحشة وحدتِه، لكنّه لم ينطق بحرف و(سحاب) أيضًا، لم تخاطبه بشيء، فقد كانت صدمتها برؤية شقيق روحها بتلك الحالة أكبر من كل الكلمات، كما أنَّ حزنها السحيق جعلها تتناسى وجود الفاعل تمامًا.

تقدَّم العم (سامين) ليتفقَّدها؛ لأنَّ مدة عناقها لأخيها قد طالت. مدَّ يديه رافعًا رأسَها، ولكنه صُدم حال رؤيته إياها مغشيًا عليها، إلّا أنَّ هذا لم يمنعه

من أخذها إلى الغرفة لتدارك المصيبة الذي ستحدثها بعد أن تستيقظ.

***

بعد منتصف الليل، فتحت عينيها الممزوجتين بخيوطٍ حمراء من كثرة البكاء وهي تحاول جاهدة استيعاب ما حدث، ثم بدأت بالبكاء والصراخ متوجهةً نحو الباب، ولكنها تفاجأت بأنه مغلق. ثم نظرت نحو النافذة فوجدتها مغلقة بإحكام أيضًا، صرخت بما تبقى من صوتها المبحوح:

- تماديتَ كثيرًا، لِمَ تسجنني؟! أريد توديع أخي المغدور.

راحت تضرِب الباب بعنف حتى سالت الدماء من يديها، ولكن دون أن يستجب لها أحد. تجمّعت الدموع بعينيها لكنّها سرعان ما منعتها من النزول، ونهضت مسرعةً نحو النافذة لتفتّش عن سبيلِ الخروج، ولكن لفت انتباهها ما رأته من فتحة النافذة! بدأت تحدّق بحدّة وهي تحاول تكذيب عينيها مما تراه، وتسارعت نبضات قلبها. والتوتر، والخوف يغزوان ملامح وجهها، وأصبحت تلتقط أنفاسها بصعوبة وهي تضع يدها على فمها من هول المنظر الذي رأته، حينما كان عمها يجر الجثة ويلقي بها في حفرة ليضع التراب وهو يدندن الأغاني وكأنه مشهدٌ ممتع ومعتادٌ عليه.

كان منظر العم (سامين) مقرفًا ومخيفًا للغاية؛ حيث التراب يملأ ثيابه والدماء على يديه، والبعض منها على وجهه. وعلى الرغم من ذلك، أكمل فعلته بكل هدوء، وشغف، واستمتاع.

شرعت (سحاب) تصرخ بكل ما أعطتها حنجرتها من قوة، وهي تقول:

- كيف تدفنه بهذه الطريقة يا أيها المتوحش، كيف؟!

وأكملت صراخها ونداءها، ولم يُجبها أحد، ثم راحت تضرب النافذة بعنف حتى خضّبت الدماء يديها. وبعد أن استسلمت، تراجعت إلى الوراء واستلقت بجسدها المنهك وتعابير وجهها الحزينة ودموعها الغزيرة والدم المتجمد في عروقها.

حاولت استيعاب ما رأت، وهي تمسح عينيها وحدثت نفسها:

- أخطأتْ النظر.. يجب أنْ يكون ما رأيته وهمًا.. وإن كان حقيقة، فلا بُدَّ أنَّ مَن قام بتلك الفعلة، شيطان على هيئة إنسان!

ثم رمت نفسها على السرير لعلّ عقلها يسعفها لاستيعاب ما حدث. هاج خيالها وماج، تتأمّل حقارة الجرائم التي يفتعلها البشر. وقفت عند ذاتها برهة، تُراجِعُ نفسَها، ثم اختزنت القوة في صدرها، وهدمت كل فكرٍ منحسرٍ يقيّدُ الروح. وجعلت من الصخور الصلبة حصنًا تدكُّ به قذارة الأمم التي تتردّى في وحل الرذيلة. وفي صمت الليل، رفعت دعوة خاشعة إلى السماء، راجية من الله الرُّشدَ وصوابَ الفعل.

فتحت (سحاب) عينيها لتُفاجأ بالطيف ذاته، أليس هو ذات الطيف الذي ظهر منذ فترة؟! وما إن تيقّنت (سحاب) من أنّه نفسه، تحدثت وهي توجه الكلام له:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

- أتظنين أن حُزنكِ سيخفف بالبكاء؟

- لا، لن تكفي دموع العالم أجمعها لتخفيف ذرة منه.

ابتسم وقال:

- أرى أنكِ لم تنهضي!

- لأنني لم أستطع فعل شيءٍ سوى طيّ نفسي ومعانقتها، ثم سقطتُ باكية، وبعدها شعرتُ بالنعاس واستطعت التغلب على الأرق اللعين.

- ثم ماذا؟ ألن تفعلي شيئًا؟

- أشعر بالعجز... أتغلم، يؤلمني أنني أنتمي لذات الفصائل السالبةُ للقب البشر... وهم وحوشٌ متنكرة في هالة بشرية.

- لا يهم الشعور، ما يهم الآن ردة الفعل.

- ماذا تقصد؟

كل ما أردت قوله أنّ الشرّ يتفاقم إن لم نستطع إيقافه.

- لم أفهم... اشرح أكثر.

قاطع حوارهم صوتُ صرير الباب ثم دخول العم عليها، قائلًا:

- مع من تتحدثين في هذا الوقت المتأخر؟!

مرت (سحاب) بعينيها على المكان تبحث عن ذلك الطيف، وتتساءل عن اختفائه، لكن سرعان ما نظرت لعمها لتندفع إليه وتمسك بياقته، وهي تصرخ:

- قاتل!! قاتلٌ متوحش!

- أرى أن القطة قد ظهر لها لسانٌ وكشفت عن أنيابها أيضا! منذ متى وأنت تتجرئين على رفع صوتكِ في وجودي؟!

ثم صفعها فسقطت لترتطم أرضًا، ثم حاولت التقاط أنفاسها، ورفعت شعرها عن وجنتيها الغارقتين بالدموع، ثم جلست تحتضن شتات جسدها بذراعيها، تبحث في عن حلٍّ، قائلة:

- كيف فعلتها؟! كيف استطعت قتله ... كيف؟!

- لم آتِ لكي أتحدَّث بهذا الأمر.

ثم تنهَّد باستياء، قائلًا بصوت غير مسموع:

- يا إلهي، جميعهم مولعون بالتفاصيل.

- أليس لديك قلب؟!

- كان لي قلب، ولكنني حنَّظتُه!

- قاتل, متوحش وظالم.

- أكون ظالمًا خيرًا لي من أن أكون مظلومًا, فأنا لا أحبّ الضعفَ بجميع

أشكاله.

ثم نظرت نحوه بنظراتٍ خالطها الغضب والاشمئزاز وتابعت حديثها:

- سأذهب إلى الشرطة! سأزج بك في السجن إلى أن تتعفّن، ولن ترى (سحاب) الخاضعة بعد الآن!

- إن كنتِ تريدين أن أقتل شخصًا آخر فلا بأس.

أجابته (سحاب) عاقدةً حاجبيها:

- ماذا تقصد؟!

- أتظنين أنني غبي؟! رأيت سهام الحب مشتعلة في عينيك... سأقتل (غيم) قبل أن أدخل السجن، ما رأيك؟

- ماذا تقول أيها الشيطان؟! ومن خدعك وقال إنني أحبه؟

حاولت الهرب وهو يشد ذراعها قائلة:

- لن تستطيع إيقافي.

- إن كان حبُّ (غيم) لا يستطيع إيقافك، فلا أظن أنَّكِ تريدين أن تكوني السبب في موته، سأذهب الآن وقبل أن أنسى، تركتُ لكِ بعضًا من الطعام على الطاولة، وداعًا أيتها القطة الشرسة.

قال العم (سامين) جملته وخرج من الغرفة غير مبالٍ بذلك الشتات والألم الذي يغمر قلب (سحاب). ثم انطوت (سحاب) على نفسها وهي تفكر: يا إلهي... هل أغضُّ النظر عن مقتل أخي أم أتسبَّبُ في مقتل أحدهم؟! ولكن يستحيل ذلك! عليَّ الصمت فهو ليس مذنبًا، إلهي أعني... ماذا أفعل، يا الله، أرجوك دُلَّني.

اغرورقت عيناها بالدموع، وأخَذَت تبكي بحُرقةٍ وهي تعانق أطرافها المشتتة لتجمع قواها، لتنهض متجهةً نحو النافذة لترى السماء تلمعُ ناظرة إلى لونها الأسود الحالك، وكأنها تشاركها أحزانها. ثم تنهدت والدموع

تتساقط من عينيها بغزارةٍ، قائلةً: لم أغذ أملك أي وجهة يا الله.. فقدتُ الطرق والمخارج، وأسير الآن إلى سبيل الضياع، ويؤسفني ذلك. كيف لمَن هي مثلي أن تتوه؟ هل خانتني الدروب، أم أنني خنتُ نفسي؟ لا أدري كيف فعلت ذلك، لكن المؤكد أنني فقدتُ أيضًا الوعي. أنا مستاءة من هذا العقل اللعين، ومن تلك الأفكار التي تقودني إلى زوال الصواب واندثار وجهات السداد. اختلطت عليّ الألوان؛ تارة أخرج عن بياضي وأميل إلى السواد، وتارة أخرى أذوب في الرماديات. لقد بلغت أقصى مراحل التناقض، بين أنْ أكون على صواب، أو أن أكون ضالة. ثم أشعر بشدة جهلي، وبشاعة ما أنا عليه، فأدخل في حالة من الاستحياء، وأفقد لغة التعبير. أشعر أنني الوحيدة التي لا يستطيع أحد استيعابها، وكل مَن حولي دُمَى بلا عقول. وبعد ذلك وبشكل مفاجئ أظهر كفتاة صلبة، مفعمة بالقوة، معتزة بتعاظم الذات، لكن صفعة واحدة تُعيدني إلى حقيقة من أكون؛ طفلة يتيمة، خاوية من الرشد. ثم أرى نفسي حمامةً بيضاء تُحلّق في سماء زرقاء، تتباهى بجمال براءتها. لكن في لحظة إدراك بمن أكون، تدنَّست تلك الحمامة، وبهت لونها حتى أصبح يميل إلى الصفرة، فغدت عادية، لا شيء مبهر فيها، وقد تلوَّثت بالقذارة البشرية. وها أنا ذا، لا أكون سوى بومة تنعق مع بداية الليل، وتزعج كلَّ مَن يسمعُ صوتَها. وفي نهاية المطاف، أجد نفسي وسط نزاع عارم، أخشى أن أخرج منه مغبونة من فئة الخاسرين؛ فالخسارة تعني الهلاك، وها أنا ذا قد أوشكت أن أبلغه. فاللهم أعِن الذي يجاهد أن يستقيم رغم اعوجاج السبل.

***

مرت سبع ليال من الألم، نهضتْ تحاول الوقوف، ولكنَّ قدميها لا تكاد تحملها... مع كل محاولة تعلن هزيمتها بالسقوط أرضًا، استسلمت لتزحف بمعدة خاوية وجسدٍ هزيل؛ نتيجة لأسبوعٍ دام دون ما يكفي من الطعامِ أو الشراب. وأخيرًا استطاعت الوصول إلى الباب لتقوم بطرقه عدَّة مرات، ولكن لا مُجيبَ، دامت محاولاتها إلى أن أُغشِيَ عليها.

فتحَ العمُّ (سامين) باب الغرفة التي خبست فيها (سحاب)، ليجدها بتلك الحالة المثيرةِ للشفقة، فحمَلَ جسدَها الهزيلَ ليضعه على الفِراش وهو يحاول إيقاظَها برتابةٍ، وما إن بدأ وعيها في الرجوعِ، تحدّث قائلًا بكبرياءٍ جافٍّ:

- متى ينتهي هذا الفصل الكئيب من الحداد؟ لقد بدأتُ أضجز منه.

تمتمتْ بصوتٍ منكسرٍ:

- حدادي لن ينتهي ما حييت، ولكنَّ السؤال موجهٌ إليك أنتَ.. متى ستكفُ عن احتجازي؟ دعني اذهب!

هزَّ رأسَه بخبثٍ ومكرٍ، ثم قال مُعَلِّلًا سببَ حبسها:

- أنتِ لستِ بتلك السذاجة التي تجعلني أخرجُك لتُذيعي بين الناس ما حدث مع أخيكِ؛ لذا لن تذهبي حتى تقومي بمحو تلك الليلة من ذاكرتك.

قالتْ بصوتٍ واهنٍ وهي تحاول أن تقاومَ ضعفها:

- لن أفعل... وإن نُحِرتْ عنقي.

ضحكَ (سامين) ضحكةً مُتجردةً من الرحمة، ثم اقترب منها أكثر، همس في أذنها:

- ستنسينها... أنا من سيفعل ذلك. أتظنين أن ذاكرتكِ ملككِ؟ هذه الأرض ملكي، ومن عليها ملكي، كلُّ شيءٍ هنا... ملكي.

ثم ضغط على عنقها حتى بدأت أنفاسُها تتقطع، وقال ببرودِ قاتلٍ:

- أمَّا عنقك فلن أنحرَهُ؛ لن أمنحك تلك الراحة التي لم أحظَ بها. أنتِ شريكتي في هذا القدر، أنا وأنتِ نلقى في غياهبِ الوحدةِ دون رغبةٍ منا في ذلك.. وأيضًا نشترك في الأسرار ذاتها، كلانا شهدَ موتَ أشقائنا.. ستحملين العبءَ معي، رغمًا عنكِ.

جحظتْ عيناها، وارتخت يداها وكأنها توقَّفتا عن محاولةِ النجاة.. سقطَت

دمعةٌ حارقةٌ من مقلتها. شعرَ العمُّ (سامين) بحرارتها، فأفلتَ عنقها فجأة.

قالت بصوتٍ متهدّجٍ:

هل هذا يعني أن أبي... لم يمت؟ بل قُتِل؟

وقفَ، وأدارَ ظهرَه، ثم قال:

أنا أقتل الجميع. دائمًا ما تُنعتونني بالشيطان، ولكنني أنا أسوأ منه بكثير. فلا تُحاولي فعل أيّ شيء... وإلّا سأجعل عددَ قتلاي ثلاثة؛ فأنا لا أحبُّ الأرقامَ الفردية.

كان (سامين) يتلذّذُ بألمها، ويريدها أن تُشاركه بذلك العبءِ الذي صنعه لنفسه، وأن يبقى مَن يقاسمه تلكَ الذكرياتَ وألا يُترَكَ وحيدًا.

عجزت (سحاب) عن الكلام؛ فعقلُها لم يستطع استيعابَ صدمةِ ما سمعت، أمّا جسدُها المنهك، الذي لم يذق طعامًا منذ أيامٍ، فلم يساعدها على أيةِ ردةِ فعلٍ، اكتفى بالارتجاف. عيناها كانت تتكلّمُ بكلِّ ما لم تستطع قوله. فقالَ دون أن يكترِثَ لدموعها المنسكبة على الأرض:

- لا أؤمن بالوعود، لكني أؤمن بالقسم. ومن ينكثُ قسمَه، يُعذَّب عندي هو وأحبابُه قبل أن ينتقل إلى الآخرة ويُعذَّب هناك... هيا، أقسمي... أقسمي بروحِ والدِك وشقيقِك أنكِ لن تتذكري، لا الآن، ولا بعد حين. وإن عادت إليكِ ذكرياتُك حتى ولو بعد سنين، فتذكّري أنّ ذلك اليوم لا يعني شيئًا إلّا إن كنتِ لعزاءِ ثالثٍ تتوقين.

انتفضتْ عيناها بالدموع؛ سالَت بحرقةٍ وقهرٍ، ثم راحت تُقسِم له، بصوتٍ مهزومٍ، أنّها ستكتمُ كلَّ ما رأته ما دامت على قيد الحياة. كانَ القسمُ موجعًا لها، وكأنها تشعرُ أنّه يوجع روحَ أخيها أيضًا. لكنها لم تستطع أن تغضَّ بصرَها عن جريمةِ قتلٍ أخرى. ثم، من دون وعيٍ، صارت تتمتم وتكرر لفظَ «شيطان».

قالَ العمُّ (سامين) مُهدّدًا ومتجاهلًا نعتَها إيّاه بالشيطان:

- ستتزوجين بأسرع وقتٍ، وستغادرين البلدة، ومتى ما غلفث أنَّ أحدًا عَلِمَ بما حدث، فسأضطر لدفنِ السِّرّ بخنجرِي، وهذا يشمل رأسَكِ ورأس (غيم). أظنُّ أننا اتفقنا.

ثم مدَّ يده نحوها لمصافحتها، فدَفَعَتْه بعيدًا عنها بعنفٍ قائلةً:

- إياكَ أن تفعلها ثانيةً! أفضِّل قطعَ يدي على أن أصافح يدكَ الملوَّثة بكلِّ ما هو نجس!

الفصل الثاني عشر

مع كثرة المحاولات المتتالية للنوم التي تُبعثها إخفاقاتٌ ذريعة، أدركت (سحاب) مع بزوغ الفجر أنّها خسرت المعركة مرّةً أخرى. نهضت من السرير تسير باتّجاه النافذة، تتأمّل الحياة الهادئة التي امتلأت بالود والسكينة، تلك المشاعر التي فقدتها منذ أعوامٍ طويلة. كانت الشمس تختبئ خلف الغيوم.

ظهرت غيمةٌ سوداء تموز بالرّعد والبرق، ثمّ اختفت لوهلة، لكنّ الهدوء لم يَدُمْ طويلًا، فبدأت السماء تزخر بحبات المطر. شعرت (سحاب) حينها أنّ الشمس لن تشرق في غياب (سديم)، وستبقى تختبئ خلف الغيوم، كأنها فتاةٌ جميلة يزيدها حياؤها حسنًا! أمّا المطر فأبدى لها مواساةَ السماء لها، كأنّها تشاركها حدادها. اتّجهت نحو الإسطبل لترى (ماقي) والمخلوقات الأخريات البريئة، بعدما ضجرت من رؤية الشياطين التي تحيط بها. داعبت الحصان قليلًا، وتمكنا من الهروب إلى مكانهما المعتاد بعيدًا عن أعين الشيطان النائم في الداخل...

امتطت (سحاب) ظهر (ماقي) وركض بها عبر الحقول بسرعة كبيرة. ومع كل خطوة، كان يُخَيَّلُ إليها أنَّ صوتًا يلاحقهما من الخلف، وكأن عينًا ترصدهما. والمفاجأة كانت حين اكتشفت أنَّ (غيم) كان يتبعها منذ مغادرتها المنزل! ترجّلت عن حصانها وانتظرته حتى يصل إليها، ثمَّ واجهته بعنف:

- أتراقبني؟!

أجابها (غيم) بهدوء:

- دائمًا ما تطرحين عليَّ الأسئلة. كنت قلقًا فحسب، فلا أعرف شيئًا عنكِ منذ أسبوع، و(سديم) أيضًا اختفى ولم أره...

ثم عقدت (سحاب) حاجبيها متعجبة، فسألته:

- مهلًا، إلى أين ذهب (سديم).

- أخبرني (سراج) -وهو صديق يعمل معنا- أنَّه اضطرَّ للذهاب لأجل عمل

طارئ.

تملّكتها خيبةٌ مريرة، كأنّها كانت تنتظر منه إجابةً تغير واقع الأمر. أطرقت برأسها حزينة دون أن تنبس بكلمة، فتساءل (غيم)، وقد بدأ القلق يتسلل إلى صوته:

- ما بكِ؟ هل قال لكِ (سديم) شيئًا؟

هزت (سحاب) رأسها نافيًا:

- لا، لم يقل شيئًا.

تفحّصَها بنظراتٍ حائرة، كأنّه يقرأ ملامحها الباهتة، وروحها المتعبة، وعينيها اللتين ظهرتا وكأن الليل يسكن أسفلهما:

- أهُناك مشكلة ما؟

أجابت ببرود:

- أيضًا لا.

قال (غيم)، محاولًا كسر الجليد الذي بينهما:

- في الحقيقة، كنت آتي إليكِ كل ليلة، لكني لم أجدكِ. حتى النافذة كانت مغلقةً على غير العادة.

ردّت عليه بجفاء:

- ربما أغلقتها لأنّني لم أعد أنتظر أحدًا.

لكنّه أصرّ على مبتغاه:

- لكنّي سأظلُّ آتي كلَّ ليلة، حتى تفتحي لي نافذة قلبكِ.

قالت بصيغة قاطعة:

- لا أعتقد ذلك.

انتفض (غيم) محتجًا:

- لماذا كل هذا العناد؟ لماذا لا تعطينني فرصةً واحدةً فقط؟

أخذ نفسًا طويلًا ثم اندفع بـأسى:

- لماذا لا ترين محاولاتي؟ لماذا لا تلاحظين ما أفعله من أجلكِ؟!

أجابته بصوتٍ هادئٍ قاسٍ، كأنَّ كلماتها تُمزّق كلّ خيطٍ أملٍ كان يتشبّث به:

- أنا لا أراكَ أصلًا.

ساد صمتٌ ثقيل، كانت (سحاب) تسترجع كلمات أخيها عندما كان يزكّي لها صديقَه (غيم)، كانت تشعر بأنَّه ترك في عاتقها وصية عظيمة، وإشارةً خفيَّة ترشدها نحو الروح التي يجب أن تتجه إليها... لكنَّها الآن تتأرجح بين ما طُلب منها وبين ما تراه هي بعينيها، غير واثقة من حقيقة ما تشعر به. قاطَعَ (غيم) تفكيرها بصوت يملؤه الخذلان:

- لماذا لا تستطيعين تقبُّل وجودي بجانبكِ؟ لماذا لا تنظرين إليَّ كما أنظر إليكِ؟ لِمَ لا تشاركينني الحبَّ الذي أشارِكُكِ إياه؟!

- ومَن أنتَ حتى أحبُّكَ؟ أأنتَ السماءُ التي أطيلُ النظر إليها لأجدَ سكون روحي في زُرقَتِها؟ أم كتبي التي ألوذ بها كلَّما ضاق صدري وأرتاح بين صفحاتها؟ أم أنَّك قصائد محمود درويش؟

أجاب بحرارة:

- أستطيع أن أكون غيمتك البيضاء، تلك التي تزيِّنُ زرقة سمائك، وأكون محتوى كتبك، تلك التي تَعُودِين إليها كلَّما ضاق صدرك، أستطيع أن أكون شاعرًا يقضي لياليه في وصف جمال عينيك وشاماتك.

كانت ملامحها توشك أن تباغتها، فثمَّة شيء في قلبها تحرَّك، كاد أن يفضحَها ارتجافُ قلبِها المستترُ خلفَ الصمت، لكنَّ نظراتِها الجليدية أنقذت

الموقف، وبقيت ثابتة إمام كلّ ارتجافة كانت على وشك البوح.

ثم اقترب منها ونظر إليها بجديّة ورزانة، وقال:

- سيدتي، أُعطيكِ وصفَ بعض صِفاتِكِ ... للّه دَرُّكِ يا أحلى الأنامِ

عنْ قَمَرٍ بَهيّ المنظَرِ... عظيمِ الجمالِ سيّدِ الأجرامِ

يُشيرُ في حالاتِه عنْ حالِكِ ... في وَصْفِهِ عنْ وصْفِكِ جَلّ ارْتسامِ

فَشريطُ هلالٍ إنْ كُنْتِ في غَضبٍ ... أو عانيتِ سيّدتي من الآلامِ

شحقًا لِمنْ يؤذيكِ سيّدتي ... سُحقًا لِوابِلِ الأسقامِ

سُحقًا لمن يُكدّرُ صَفْوكِ... سُحقًا لهذهِ الآلام

تُنيرُ عيونُكِ الأخضر... تُضيءُ الكونَ سيّدتي، تُزيحُ سَوادَهُ الأكحَل،
وتُطوي لي دُجى اللّيلِ، وتدْفُنُ بعْدَها حلكَ العتامِ

ويبدو الوَجهُ يا قَمَري... كَبَدرٍ في تُزُلِ التمامِ

سُبحانَ منْ سوّاكُما لي... سُبحانَ ذي الجلالِ والإكرامِ

حاولت (سحاب) ألّا تُظهر على ملامحها التأثُّر بكلماته، ثم أدارت ظهرها، وقالت قبل أن تمضي بصوت أشبه للهمس:

- استودعتك الله.

ثم توقف وكأنّ أملًا ما تسلّل إلى قلبه، ثم قال بنبرة مرتبكة:

- هل تعلمين ماذا تعني تلك الكلمة؟

قالت بصوت خافت:

- نعم...

- وهل تعنينها؟

صمتت (سحاب) ولم تُجب، فأردف قائلًا:

- حينما نستودع الله أحدهم، نرجو من الله أن يضعه في رعايته، ويكتب لنا لقاء آخر معه، ولا يفعل ذلك إلا مُحب.

أشاحت بوجهها بخجل، دون أن تشير إلى شيء وذهبت على عجل.

الفصل الثالث عشر

جلس (سراج) وحيدًا عند حافة السرير الخالي، سرير كان يومًا ما دافئًا بوجود (سديم)، لكنّه الآن صار قطعةً من خشب بارد لا حياة فيه. الدموع تسيل على خديه كأنهارٍ مندفعة، تبلل الأغطية الباهتة بفقدان صاحبها، والوسادة التي ما زالت تحمل شيئًا من عطره الباقي، والأرض التي تتلظى تحت وطأة حسرته.

كان جرمُه أعظم من أن يُغتفر. ارتفع صوته في أنينٍ طويل، كأنّه يحاول إخراج الألم من أعماقه، لكن الألم كان أعمق من أن يختفي. فجأة، وبغضب جامح، اندفع (سراج) نحو أقرب جدار وبدأ بضرب رأسه به مرارًا وتكرارًا، دون أن يشعر بأي ألم جسدي، فالألم الداخلي كان يطغى على كل شيء. كان وجهه مشوهًا من شدة الألم، وعيناه الحمراوان تلمعان بغضب ويأس. تحطّمت مزهرية كانت بجانبه إلى أجزاء متناثرة على الأرض، لكنّه لم يلتفت إليها.

خارت قواه فجأة، وانهار على الأرض جالسًا، تحدّق عيناه الجامدتان في الفراغ، يتأمل الأشياء من حوله وكأنها غريبة عنه، أو كأنها تحمل ذكريات مؤلمة. بدأ يهمس بصوت مبحوح، تارة يلومها على ما حدث، وتارة يلعن القدر الذي أوصله إلى هذه الحال. كانت كلماته غير مفهومة، تقطعها آهات مكتومة، كأن عقله بدأ يتمزق.

التفتَ إلى السرير الفارغ وكأنّه يرى (سديم) جالسًا هناك، يسمعه بابتسامته الهادئة، لكنّه يعرف... يعرف أنّ السرير لن يرد. ليس له آذان ليسمع، ولا قلب ينبض ليتفاعل مع عذابه. ومع ذلك، راح يُفرغ قلبه المُنهار، يحكي له القصة التي لم يجرؤ على البوح بها لأحد.

«لم نختر أن نكون أشرارًا، لكنّ الحياة أثقلت كاهلنا حتى دفعتنا إلى ذلك.

حينما تُوفِّي والداي وبقيت بمفردي في تلك الحياة البائسة التي تعج بعديمي الرحمة، لقبت حينها بالأسود القبيح، وبما أنّ العالم مُنافق فالمظاهر

مهمةٌ دائمًا فمَن سيودُّ الاعتناء بطفلٍ أسودَ وقبيحٍ مثلي، حتى أنسوني تمامًا.. اسمي الحقيقي ألا وهو (سراج)، حتى إنني حينها نسيتُ كوني إنسانًا، لستُ سوى ذاك الشيء الأسود القبيح. اتّخذت من الأرض فراشًا وجعلتُ من السماءِ لحافًا لي، ومن خلالِ الشوارع والأسواق، أستطيع أنْ أضمنَ قوت يومي، أو بمعنى أصح، شيءٌ يضمنُ لي ألا أموت جوعًا.

وفي أحد الأيام، كنتُ أتجول في زقاق سوقٍ من الأسواق، فصادفتُ رجلًا يبدو في العقد السابع من عمره، حينها فاجأني بسؤالٍ سمعته أول مرة منذ سنوات طويلة، ولا أبالغ في قولي بأنها أول مرة.. أصابني الجمود حينها وبدأت أحدّق بهِ كطفلٍ صغيرٍ رأى قطعةً من الحلوى؛ قال لي وهو يهم نحوي واضعًا كفَّ يده على رأسي قائلًا: ما اسمك؟. لم أجبه على سؤاله من أوّل مره لأنّني حقًا نسيت اسمي ولم انطق به منذ سنوات عدة. أعاد سؤاله بنبرةٍ أكثر حنيّة، لا أعلم كيف لي أن أصف الحنان وأنا لم أشعر به قط؛ فقد تُوفّي والداي وأنا لم أبلغ من العمر عامين، بعدها لم أرَ سوى الألمِ من قِبَل جدتي التي كانت تعتني بي رغمًا عنها، وعندما بلغتُ السادسة من عمري، كانت قد توفيت وتركتني وحيدًا أحمل عبءَ الديون المتراكمة التي تركها والدي، فحينما توفيت جدتي أخذو المنزل كعوضٍ عن الديون، ومن هنا حصلتُ على لقبِ (ابن الشوارع). واللقب الأكثرُ شهرةً (الأسود القبيح).

ترددت حينها، هل أجيبه على سؤاله بـ(ابن الشوارع) أم بـ(الأسود القبيح)؟ أصابتني حيرةٌ شديدة، طأطأتُ راسي وبكل حياءٍ ورهبة أجبته قائلًا: (سراج). راح يرفع راسي ويمسح عليه بحنوٍّ ليقول: اسمك جميلٌ جدًا، وما هذا الشعرُ الجميل؟ ثم تحسَّست راسي متسائلًا، ألديَّ شعر جميل؟ لم أفكر به قطُّ؛ فكلُّ ما أعرفه عني أنني أسود وقبيح! تحسَّست شعري وإذ بي أشعر بنعومته، كان جميلًا حقًا، ولكني لم أدرك ذلك إلا بعد إطرائه، ومِن هنا تغيرتْ حياة (سراج)، بدأت بالعمل معه فأصبحت أمتلك منزلًا وعائلة، والأهمُّ من ذلك شخصًا يدعوني بـ (بُنيّ سراج).

كان العم (سفيان) هو من صادفت، كان للعم (سفيان) طفلٌ آخر وكانت

الألفة بيننا شديدة، حينها دُهشت كيف يستطيع المرء أن يعامل طفلًا ليس من صلبه بذاتِ الحبّ والإحسان الذي يقدّمه لمَن هم مِن صلبه، كان العم (سفيان) متزوجًا من زوجة أخيه المُتوفّى، الذي ترك له طفلًا يحتاج إلى رعاية واهتمام. كان (غيم) طفلًا مهذّبًا جدًا، وكان لـ(غيم) صديقٌ يدعى (سديم) فبدأتُ بالعمل معهما ليصبح لدي أخوان، نعم ليس بيننا قرابة ولا صلة دم، ولكننا شركاء بالقدرِ البائس ذاته فجميعنا عانينا من تلك الندبات العائلية التي يستحيلُ أن يزول أثرها؛ ستبقى ندبات ظاهرة وواضحة في أرواحنا، لم أطمح بالكثير.. إنّما أردت أن يكون لي أرضٌ وجذورٌ أنتمي إليها... أو ربما أردت الشعور بكوني إنسانًا ولديّ أشياء تعود إليّ، وهذا ما دفع بي إلى أنْ أفرّط بصديقي.

هذا ليس مبررًا لخيانتي، أنا فقط أتحدثُ عن الأسباب التي جعلت مني خائنًا، وعلى الرغم من حصولي على اللقب الجديد والبشع ألا وهو (الخائن). ولكنني أبقى خائنًا شريفًا، فلم أستطع أن أخون أمانة العم (سفيان) وأن أخون (غيم)، فاخترت (سديم) كي يكون صديق قدري، وفي يومٍ لعين، علمت أنَّ أحدهم أتى لشراء منزلنا القديم الذي يحملُ ذكريات طفولتي القصيرة التي لا أكاد أتذكر منها شيئًا، أخبرت صاحب المنزل أنّه إذا أراد بيع المنزل، فأنا من سيشتريه، وعملت تلك الفترة الطويلة من عمري على أملِ تحقيقِ ذلك الحلم، ففوجئتُ يومًا بأن صاحب المنزل قرر بيعه لتاجرٍ كبير خارج المدينة، فمن الطبيعي أن يدفع سعرًا أكثر من السعر الذي يمكننى دفعه؛ فهو تاجر.

ولكنني قررت المحاولة، فذهبتُ لصاحب المنزل مسرعًا؛ لأقول له إنني أرغب في شراء المنزل، وعندما رأى إصراري استغل ذلك بطريقته الانتهازية طالبًا مبلغًا كبيرًا لا قدرة لي على دفعه، فأسلمت نفسي لحظّي العاثر.. وقبل ذهابي شعرت بأنّه شعر بشفقة تُجاهي، واقترح علي الالتقاء بالرجل الذي يودُّ شراء المنزل ومحاولة إقناعه، لأنّه - كما يدّعي- قد اتفق معه، ولا يستطيع انقاض الاتفاق.

وبالفعل نظّم لنا لقاءً، وفوجئت بأن الذي يريد شراء منزلنا هو عم (سديم)، ولم يرغب بسماعي حتى، ولكن قبل ذهابه قال لي: أتود قول شيءٍ آخر. فأجبته بسرعة ودون تفكير:

- سديمَ!

وإذ بالرجل ينتفض من مكانه ليقول: ماذا قلت؟ هل تعرف عن ذلك اللص شيئًا؟!.

لم أفهم حينها سبب نعته لـ(سديم) باللص، خصوصًا أنّ (سديم) من أنبل وأكثر الأشخاص صدقًا. اقترب مني (سامين) وانهال عليّ بالأسئلة، فعلمت حينها أن صديق قدري هو الورقة الرابحة لإعادة منزلي، فأفصحت له عن أمر (سديم) وخططه عما ينوي فعله دون إخباره عن (غيم)، لأبرّر لنفسي أني خائنٌ شريف، ولكن والله لم أعلم أني سأكون خائنًا وقاتلًا في آنٍ واحد.

لا أدري أيستحقُّ المنزلُ الطينيّ كلَّ هذه التضحية؟ ولكنه ليس منزلًا فحسب، لقد أمضيت فيه طفولتي ولحظاتي الجميلة مع عائلتي، وكان أبي يحاول جاهدًا الحفاظ عليه. نحن البشر نطمع دائمًا بالكثير، ولكن الحياة لا تهبنا شيئًا، دون أن ندفع ثمنه باهظًا.

نهض وهو يمسح دموعه وكأنّه يستعيد شيئًا من قوته ثم أعاد نظره إلى سريره وأكمل كلامه:

«أعلم أنّ دموعي الحارقة لن تُغيّر شيئًا، ولكنها ليست دموعًا زائفة... لن أطلب السماح منك يا صديقَ قدري، إنّما سأمضي بالطريق الذي سلكته ودفعت ثمنه حياتك، سأكمل ذلك الطريق وأستعيد لكَ حقَّكَ، لعلّ ذلك يريح ضميري، ومهما حصل، فسوف أوفي بعهدي لكَ، وسأثار لروحك النبيلة».

الفصل الرابع عشر

حينما كانت (سحاب) غارقة في عالمها البائس، نهضت واتجهت نحو النافذة لترفع رأسها نحو السماء، متأملة، فقالت:

- آهٍ، ما أجمل القمر هذه الليلة!

فلقد اكتمل القمر وظهر بأبهى حلله. ثم سرحت بخيالها، تحاول أن تجمع ملامح وجهه، كل ما علق في ذهنها كان تلك الخصلة البيضاء التي تطفو على جبينه متناسقة مع بياض أطراف لحيته، ومن تحتها هاتان العينان السوداوان، ولا سيما تصرفاته الغريبة، تلك التي كانت تثير الاستغراب لكنها كانت لطيفة. ابتسمت ابتسامة طفيفة، ولكنها لم تستمر طويلًا، فقد انقطع خيط أفكارها عندما فتح العم (سامين) الباب بقوة وعنف واندفع نحوها بشراسة قائلًا:

- لماذا لا يريد الأحمق الزواج الآن؟!

نظرت إليه سحاب بصدمة لتقول بانفعال:

- ما الذي تهذي به يا هذا؟! وما أدراني أنا؟!

- لقد أخبرته بأن يسرع في تحضيرات الزواج، وأخبرني بأنّه على غير عجلة، وأنا أريد أن يتمّ زواجكما في أسرع وقتٍ ممكن، لتذهبي من هنا.

- أتظن أني مولعةٌ بالبقاء في المنزل نفسه الذي يقطن في القتلة والشياطين المتوحشة.

- لو كنت كذلك لنحرتُ عنقك. غير أنّي لم أسألك عن رأيك أو شعورك تجاهي فمشاعرنا متبادلة، أيتها القطة ذات اللسان الطويل، أتيت لأخبركِ بأن تقنعيه بإنهاء تحضيرات الزواج في أسرع وقتٍ ممكن، لا أظن أني سأعلّمك كيف تقنعينه، استخدمي عقلك قليلًا.

ثم رمقها بنظرةٍ ساخرة وهو خارجٌ من الغرفة. وقالت في نفسها: من

الغريب أن نكون على الرأي ذاته؛ حقًا يجب أن أذهب من هنا في أسرع وقت.

ثم تذكرتْ آخر حديثٍ دار بينها وبين (غيم)، حينما أخبرها بأنّه لن يفعل شيئًا حتى تتقبل فكرة الزواج منه بصدرٍ رحب وبإرادةٍ تامةٍ منها.

تنهدت وهي تفكر بصوت مسموع:

- أنا لست متأكدة من مشاعري تُجاهه. هل أنا أحبه فعلًا؟! هل أرغب به كما يرغب هو، أم أنه فقط كان الوحيد الذي أبصرني بعين حانية في هذا العالم الذي لا يعترف بالرحمة، هل هذا هو الحب حقًا؟ أم أن قلبي المنهك من القسوة تعلق بأيّ ظلٍّ للحنان؛ ظنًا منه أنّه -أخيرًا- وجد ما يشبه الحبّ، ذلك القلب الذي نشأ يتيمًا في بيتٍ لا يشبه البيوت، بيت بارد صامت، لا يضم، ولا يسمع، ولا يرحم.

فكّرتْ قليلًا ثم أكملت حديثها:

- ربما الحبُّ ليس فقط مشاعر، بل هو إنسانية نحتاجها كي ننجو، ودفء الرحمة التي تُبقينا على قيد الحياة.

جلست على حافة السرير، كفّاها تضغطان على رأسها، تحاول إسكات العاصفة التي هاجمتها مجددًا وتعصف في ذهنها. الأفكار متصارعة، كما لو أنّ قلبَها وعقلها في معركة لا تنتهي. نهضت فجأة، كأنها ترفض أن تغرق في بحر من الشكوك. وهمست بصوت هادئ، لكنه مُحمَّلٌ بالألم والصدق: لا أعلم... وربما لا يهم الآن، المهم أنْ أخرج من هذا المنزل، وبأسرع وقت ممكن. ليس لأجلي فقط، بل لأجله هو.

في عالم قد نَسي فيه الناس معنى الرحمة، وفي وجه قسوة عمها التي قد تُحطِّمُ كلَّ شيء حيّ، أدركت أنَّ ما تشعر به ليس فقط خوفًا أو حبًا بل أعظم من ذلك بكثير... هو صرخة إنسانية، رغبة في حماية من كان بقربها، رغبة في أن يجد الآخرون ولو قليلًا ما فقدته من دفء ورحمة وأن لا تكون نهايته مشابهة لنهاية شقيقها. ثم سارت بخطوات ثابتة، التقطت قلمًا من

المقلمة، كأنّها تحاول أن تواسي نفسها بهدوء، وقالت بصوت خافت: ربما لا أعرف ما الحب الحقيقي بعد، لكنني أعلم أنّ الرحمة التي أشعر بها تجاهه هي ما تبقيني صامدة، رغم كلّ ما حدث.

وبعد تفكير طويل قررت أن تكتب له رسالة تقول فيها:

«أتكون أزرقي؟

يا غيمةً بيضاء جالت في سمائي

يا نجمتي المضيئة، يا نورًا أنار ظلامي

يا من مزج ليلي بنهاري، وعبث بقلبي وأخلّ اتزاني

حتى ما عدتُ أدل طريق العودة إلى صوابي

يا عوضًا جميلًا أتى من الله على ما فاتني

يا دعوةً استُجيبت لأمي في ليلة القدر فغيّرت أقداري

هل تكون جاري وفي جواري ورجلًا لداري

هل ستنصت لحديثي الطويل، وهمسي، وهرائي

أم أنك ستضجر من أول لحظات هذياني؟

هل كتفك ستحمل أحزاني وآلامي

هل أنت قادر على أن تحتمل ثقل أعبائي

هل ستعانق شتاتي وتكون عوضًا بعد خساراتي

وتكون حافظًا لأسراري. أتيتَ كأملٍ، وبه بنيتُ أحلامي

وإن قبلتَ فسأفرُّ من جميعهم حتى نفسي وإليك آتي

ثم ابتسمت وهي تطوي الورقة وتقول: إن كنتَ حقًا تدَّعي أنك ستصبحُ شاعرًا فريدًا عند رؤيتي، فأرني ردَّك على سياق هذه الرسالة.

الفصل الخامس عشر

بينما كان (غيم) جالسًا شاردَ الذهن في مكان عمله، قطع حبلَ أفكارِه (سراج) وهو يفتح الباب حاملًا ظرفًا بيده، ويقول:

- لقد وصلك هذا الظرف صباحًا.

ثم مدَّ الظرف إليه، كان ظرفًا أبيض اللون يتوسطه ختمٌ شمعي أزرق. لفت ذلك انتباه (غيم)، فغالبًا ما يكون الختم ذا لونٍ أحمر، ففتحه سريعًا، وحينما رأى أول وصف له «يا أزرقي» راح يصرخ مناديًا (سراج) الذي كان على وشك الخروج، ثم قال ويداه ترتجفان:

- إنها رسالةٌ من (سحاب)!

بدأ (غيم) بقراءة الرسالة، وما إن انتهى حتى تنهد وكأنه محاربٌ انتصر في معركة، وجلس على كرسي المكتب ليدور به، قائلًا:

- أعطتني فرصة! أو ربما أحبَّتني، لا أعلم... ولكنَّها قَبِلَتنِي يا سراج! سأتزوج، وسيبني صديقك عشَّه الخاص.

قال سراج محاولًا إخفاء ضحكته:

- هل الحب يفعل كل هذا؟

أخذ (غيم) نَفَسًا عميقًا وأخرج ما في قلبه، دون أن يردعه أيُّ خجل أو تردد:

- بل أكثر من هذا يا (سراج)! إنها جميلةٌ لدرجة أنَّها تبثُّ في روحي سلامًا واطمئنانًا.... إنها ليست عادية، هي كالقمر المنير، بل تفوقه بهاءً، هي مثل شيء لا أعرف ما هو، لكنني أجزم بأنَّها ليست بشرًا مثلنا! كأنها خلقت من نسيج الأفلاك، وحيكت بخيوط من نور الكواكب. براءة روحها ليست من الأرض، بل سرٌّ سماوي تسلل إلى هذا العالم القبيح المظلم.

ثم تنهَّد باسمًا، وهو يعيد القلم إلى المقلمة التي بجانبه على طاولة

ART_OF_BOOK

المكتب:

- صدقني لا أعلم من أيّ كوكبٍ سقطت!

ردّ وهو يحاول تحذيره، بنبرة لم تكن عدوانية، لكنها كانت حادة بما يكفي لتوقظ الانتباه:

- أمتأكد أنت بأن تلك المشاعر ليست عابرة؟ فنحن رجال، ونعرف بعضنا البعض.

ثم أضاف بصوت أكثر جدية:

- ولا تنسَ أنّ (سحاب) شقيقة (سديم).

في تلك اللحظة، بدا (سراج) وكأنه لا يوجّه الكلمات فقط، بل يحاول أن يضع حاجزًا غير مرئي حول (سحاب). ليحميها بطريقته الخاصّة، دون أن يُفصح عمّا يدور بداخله.

فقد بدأ بتنفيذ وعده لتلك الروح الذي تشاركه بذات القدر البائس.

قال (غيم) بكل ثقة:

- صدقني ... إنّ (سحاب) ليست زائرةً عابرةً. كانت حدثًا كونيًا أصاب حياتي المبهمة كما تصيب الشهب كوكبًا لم يكن يتوقع النور ولا الانفجار.

قال (سراج) مُتعجّبًا:

- غريبٌ أمرك، فأنا أعرفك جيّدًا، فلستَ ممن يركضون خلف الحب والفتيات، والآن أراك كالطفل أمامها!

- الحبُ شيءٌ بريءٌ ونقيٌ، لا ينبتُ في القلوب الممتلئة بالحقد أو الشرّ، فالحبُ لا يسكن إلا قلبًا نظيفًا سليمًا من الأذى. فحينَ نحبُ نعود أطفالًا، ولأننا نتلوث كلما نكبر... فهو يعيدنا إلى أصلنا الطاهر؛ نكبر فنتّسخ... ونحب فنتطهّر.

- أخشى على قلبك الألم من هذا الحب.

- هو شيءٌ بعيدٌ عن الألم! حتى حرفُ السين في بداية اسمها، يدلّ على أنّها سلام.. أشعر بأنّ قلبي يحمل قوة أكبر من ضخ الدماء في عروقي، أشعر بسلام داخلي عندما أراها، يتبدّد الظلام الذي في داخلي ويتقلص... لا تقلق، يا (سراج).. لا تقلق فصديقك سعيدٌ جدًا كما لم يكن منذ قبل.

- كيف علمت أنّ هذا يعني الحب؟

- عندما أراها، تتصلّب عضلات وجهي على هيئة الابتسام، أمّا قلبي فيظل يرقص طوال اليوم. وعندما تَغِيبُ، أعلِنُ حدادي مدةَ غيابها، ويبقى قلبي حزينًا إلى أنْ ألتقيها مرةً أخرى ... فإن لم يكن هذا حبًا، فماذا يكون، يا (سراج)؟!

ابتسم (سراج) وهو يشعر براحة (غيم) المطلقة، وأجابه:

- يبدو أنّه العشق يا صديقي.

تغيرت ملامح (غيم) وهو يتذكر كلماتها الأخيرة في الرسالة، وقال وشيء من الإحباط يخرج من كلماته:

- مهلًا، مهلًا! طلبتْ مني أن أرد عليها بذات الأسلوب، كيف سأفعل ذلك؟ فأنا لستُ جيّدًا بكتابة الشعر.

- لا تقلق، فالحب يجعلنا شعراء دون رغبة منا في ذلك. وأنا أعرف جيدًا إطراءاتك ولسانك العذب مع الرجال، فحتمًا سيكون أجمل وأرق مع معشوقتك.

غمز له (سراج) بعينه ثم انصرف. وبدأ (غيم) محاولة كتابة شيءٍ يبهرها، وراح يتذكّر ملامح وجهها القمري، فأطفأ عقله وجعل قلبه من يكتب.

***

أيا قمري...

إن كنتُ تلك الغيمة البيضاء المُزينة لسمائكِ، فأنتِ سمائي

وإن كنتُ نجمتك المُضيئة، فأنتِ نوري وضيائي

وإن كنتُ دعوة أمك وحدها، فكأنما...

تجمّع الإنس والجانُّ للدعاءِ

والملائكة بعدهم بتضرعٍ

رباهُ، أفضل الخير والإرضاء

فكنتِ الخير كُله مليكتي...

وكنت ببحر فيضك قطرة الإرواءِ

أوَتسأليننني عن قربٍ بهِ أرغب؟

أوَتشيرين عن حبٍّ بهِ أقبل؟

أو تسأليننني عن حديثٍ من ثغركِ الأجمل؟

كثرثرة العصافيرِ في صباحها الأول

واللهِ لن أضجر

واللهِ لن أضجر

واللهِ لن أضجر

وإن كانت هي الأطول

وإن قَدمَتْ كنشأة البشرية الأوّل

يا نغمة الحبِّ، يا سحرها الأكمل..

***

الفصل السادس عشر

في ساعةٍ متأخرةٍ بعد منتصفِ الليل، كانت (سحاب) تجلس أمام مكتبتها الصغيرة ذات الطراز القديم، حيث تملأ رفوفها الكتبُ والتُحف القديمة والكثير من النباتات والزهور، كانت حجرتها مختلفة تمامًا عن منزلها وكأنّها بَنَتْ فيها عالمًا خاصًا بها، منفصلًا عن كلّ شيء. تنهدت وأمسكت قلمها وبدأت الكتابة.

«لقد كانت خسارتي كبيرة لا تُحصى، والضربة قاسية.. خسرتُ كلّ ما أملكه؛ لقد خسرت شقيق روحي، وكُسرَ أحد أضلعي، وبُتر جناحي، وها هي روحي خاوية من بعدك، فقدتُك ولم أعُد أشعرُ أنّ لي ما أُسند عليه ظهري.. كل ما بداخلي يبكي قبل أن تدمع عيني، حتى أوشكت دموعي أن تجف. لكن حزني عليك يستحيل أن ينتهي.

ستبقى وجعي الدفين، وألمي الذي لا يهدأ... يا أخي، يا شقيق روحي».

أغلقت دفترها ووضعته في مكانه المعتاد، وذهبت متجهة نحو نافذتها، وكانت المفاجأة عندما رأت (غيم) يقف أمامها ويطل من النافذة، فتحت النافذة ونظرتْ إليه بحدّة، وقالت:

- ما الذي تفعلهُ هنا؟! أجننتَ؟

- أردتُ أن أجيب على رسالتك وجهًا لوجه.

ردّت بغضبٍ وخوفٍ، وهي تراقب المكان من حوله:

- سيكون وجهي آخر وجه تراه لو رآنا عمي (سامين)..

ردَّ (غيم) غير مبالٍ بترهيبها:

- ستكون أجملَ ميتة يا قمري.

احمرّت وجنتا (سحاب) خجلًا، وقالت وهي تشيح شعرها الأسود الطويل عن وجهها، محاولة الحفاظ على ملامحها الجادّة:

- كان يكفي أن ترسل الرد بالطريقة ذاتها التي وصلتك بها رسالتي.

- ألم تقولي لي: أتكونُ جاري، وفي جواري، ورجلًا في داري؟ أليس كذلك؟ أتيتُ؛ لأُخبِرَكِ أنّي سأكون كذلك ما حييت يا قمري!

شعرتْ (سحاب) بجديّة مستقبلها معه، كان لكلامه هالة انسابت إلى جلدها فاقشعر؛ فطأطأت رأسها خجلًا، قائلة:

- ألهذا أتيت بهذا الوقت المتأخر من الليل؟!

أجابها بنبرة ممزوجة بحماسه وتساؤله:

- دعكِ من ذلك، لماذا أزرقي؟

أجابته بهدوء دون تفكير وكأنها جهّزت لهذا السؤال كثيرًا:

- لأنّ الأزرق يرمز إلى الصفاء والنقاء كلون البحر والسماء.

قال لها قاطبًا حاجبيه مع ضحكة مكتومة:

- ولكن (ماقي) تعني أزرقي.

ثم أطلق ضحكته وكأنه يسخر منها، قائلًا:

- هل تمنحينني لَقَبَ حصانِك، يا قمري!

أجابت بحرجٍ وارتباك، قائلة:

- لا، لا، ليس كذلك.

فقال بحماس وتعجُّل متجاهلًا تبريرها:

- متى سيكون الزواج؟! أكاد أموت من فرط حماسي، سأرى قمري ترتدي الأبيض... ستكونين سحابتي الماطرة.. أتعلمين؟ كُلُّ تفاصيلكِ مُحاكة بخيوطٍ فلكية: كالقمر، والسماء، والغيوم.. وكلُّ شيءٍ جميل يشبهك. محال أن أكون قد رأيت طوال حياتي امرأةً تشبهكِ.

- كلامُك يُخيفني أشعر كأن ما يميزني فقط هو هيئتي. اصدقني القول،

هل تراني مجرّد كومة لحم؟

- بل رأيت روحًا أحيث روحي، روحًا أخرجتني من عتمتي، وأعادتني إلى النور، بعد سنين عجاف كنت فيها ميتًا وأنا حيّ. أنا لا أراك إلا أجمل امرأة في العالم.

ابتلعت (سحاب) ريقها للاستعداد للإجابة، وبكل شموخٍ قالت:

- لا أريد أن أكون أجمل امرأة في العالم، بل يكفيني أن تراني الأجمل في عينك.

وفجأة! سمعا صوتَ خفقِ أقدامٍ يقترب، ارتجفت الحروف في فم (سحاب)، وهي تطلب من (غيم) المغادرة، وفي تلك اللحظة قاطع حديثهما وصول العم (سامين) من خلف (غيم)، وراح يصرخ به قائلًا:

- ما الذي تفعله هنا، أيها الوضيع؟! أتريد أخذ حاجتك منها وتركها بعد ذلك؟ لو رآكما أحدٌ ما، لَتحدَّث عن شرفِها ولَغَدَتْ مضغة في أفواه الناس!

أجابه (غيم) بكل هدوءٍ وثقة:

- اختر ألفاظك بعناية وأنت تحدثني، فإنّي لا أتعدّى حدود الله، ولن أهتمّ للحدود التي وضعها العالم.

- هل أصبحتَ فيلسوفًا، يا عديمَ الشَّرف.

ثم نظر إلى (سحاب) مشيرًا وهو يقترب منها محاولًا صفعها:

- وأنتِ يا ****. لماذا تفتحين له النافذة وتتحدثين معه؟!

صرخ (غيم) بصوتٍ غاضبٍ على غير عادته، وصدَّ يد (سامين) لمنعه من ضربها، قائلًا:

- إياك أن ترفع يدك عليها مرَّةً أخرى، لأنّني لا أظنُّ أنّها ستعودُ إليك كما كانت.

قاطعت (سحاب) حديثهما، موجهة حديثها لعمها:

- ظننتُ للوهلة الأولى أنّك قلِقٌ عليّ، لكن كما أرى أنّك خائفٌ من كلام الناس!

أكملت حديثها وهي تنظر إليه بثبات، وقالت بحدّة وسخريّة لاذعة:

- هذا ما يخيفك؟ ما يقوله الناس؟ كأن الشرف لا يُقاس بالنية أو الفعل، بل بما تنطقه الألسنة. تجعلون الشرف مرهونًا بأحاديثهم، لا بما نكون عليه حقًّا... نكذب، نخون، نسرق، نظلم، نقتل ... ومع ذلك، لا يَمسُّ ذلك الشرف المزعوم. الشرف ليس سمعةً تُدار بين الألسن، بل ضميرًا حيًّا وأفعالًا تُحسب. وإن كان مفهومك عن الشرف بهذه السطحية فأن أكون "بلا شرف" خيرٌ لي من أن أكون قاتلة متوحشة بطباع شيطان!

توقّفت قليلًا ثمّ أكملت لتفاجئ عمّها حتى (غيم) بقولها:

- والآن فإنّي أعلم ما ترنو إليه... وزواجنا سيكون غدًا مساءً.

اندهش (سامين) منها ومن غرابة تصرفاتها. تركهما وعاد إلى غرفته وكأن كلمات (سحاب) أعادت له شيئًا من ارتياحه العميق؛ فزفافهما حلٌّ أخيرًا. فقال (غيم) وهو ينظر إليها متعجّبًا ومفتخرًا بأنّها بتلك القوة العقلية:

- يا لك من حكيمة يا قمري!

نظرت إليه (سحاب) لتقول:

- ألا تجيد شيئًا في الحياة سوى الغزل! لقد كان محقًّا، ليس من الصواب بقاؤك هنا... هيّا، انصرف أنت أيضًا.

- لا أجيد الغزل، ولكنّ عينيكِ الخضراوين ... كحقولِ الزيتون التي في فلسطين تجعل مني (محمود درويش).

ثم رفع إصبعه مشيرًا لأسفل عينها اليسرى، وأردف قائلًا:

- النجوم اختارت موقعها الجغرافي بعناية حينما استقرّت تحت عينك.

- حقًا يكفي! اذهب، ولتستيقظ باكرًا وتستعد لتحضيرات الزواج.

- سأذهب ولكن بشرط.

زفرت (سحاب)، وقالت:

- وما الشرط؟!

- أن تُفصِحي لي عن مشاعرك وأنت تنظرين إليّ ليس في رسالة. أن تقولي أحبك مثلًا.

- أنا لا أحبك، أنا فقط لا استطيع إخراجك من عقلي.

- إذًن، لن أذهب.

زفرت (سحاب) وأجابت بعد نفاد صبرها:

- حسنًا، أنا ...

لم تكمل جملتها، ثم أردفت بنبرة أكثر هدوءًا:

- أستودعك الله! هيا انصرف.

ابتسم (غيم) وقال:

- أستودعك الله...

***

ART_OF_BOOK

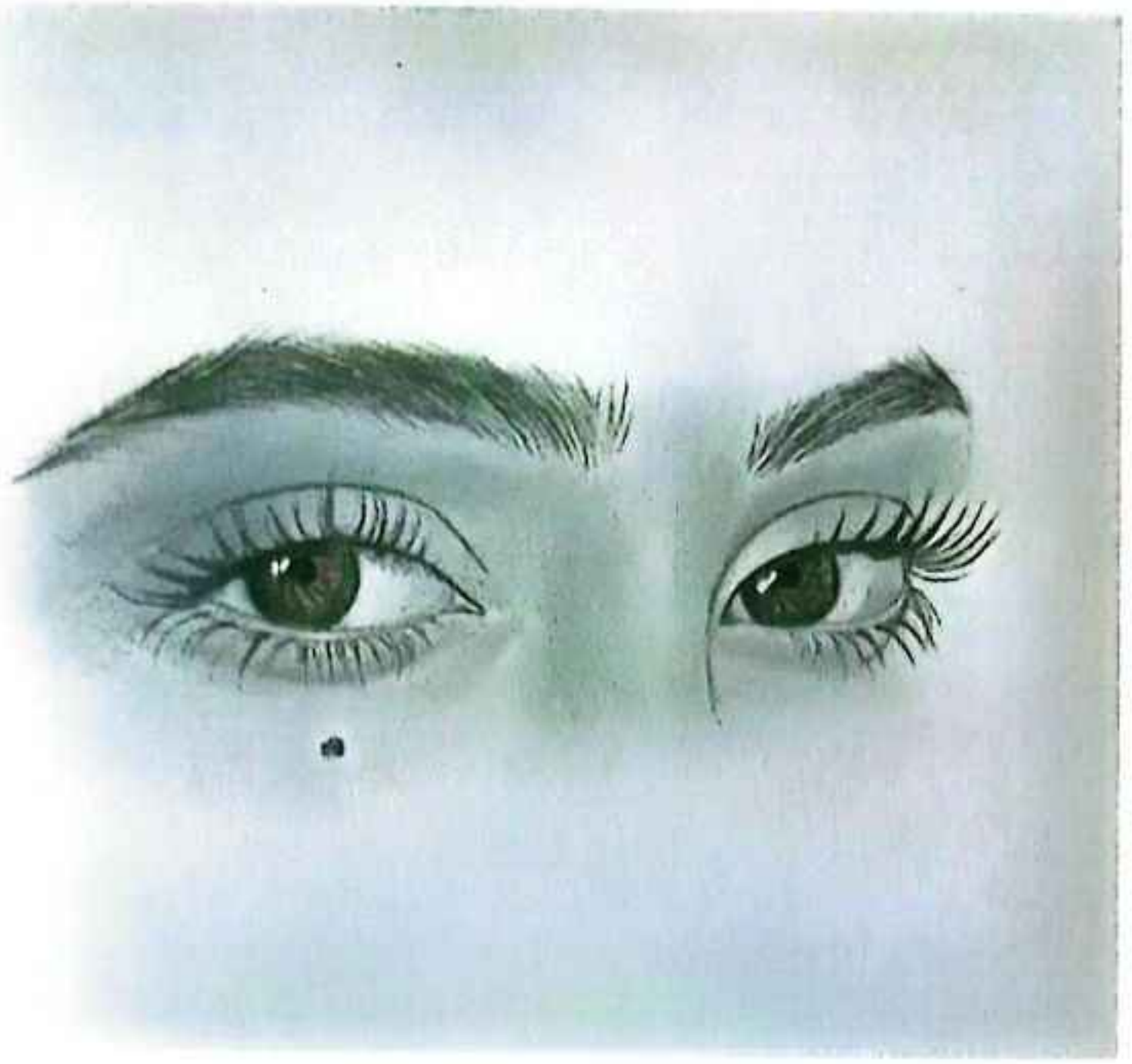

لا أجيد الغزل ولكنَّ عينيك الخضراوين

كحقول الزيتون التي في فلسطين تجعل منّي (محمود درويش).

الفصل السابع عشر

مع بزوغ الشمس، دخل بصيص من نور الشمس لتفتح (سحاب) عينيها مستاءة من النور الذي استباحها، ثم نهضت من مضجعها لترى انعكاس صورتها في المرآة، وللحظة.. سمعت (سحاب) صوتًا لم تدرك مصدره في بداية الأمر، ولكن ليست سوى لحظات حتى أدركت أنّ الصوت كان صادرًا من داخلها، نظرت إلى المرآة لتقول محدثةً نفسها:

- سنبدأ رحلةً جديدة، هل أنتِ متحمسة لها؟

ابتسمت لتجيب نفسها:

- لا أعلم.. التوتُّز والرهبة يُسيطرانِ على مشاعري.

- ولكن جميع الفتيات في هذا السن يطمحن لهذه الخطوة.. يطمحن لذلك اليوم الذي يرتدين فيه فستانًا أبيض اللون، وأن يبدأن حياةً جديدة ومختلفة، مليئة بالتحديات والصعوبات وأن يحظين بالسعادة والحب.

- وهل الزواج يضمن الحب والسعادة؟

- بالطبع لا، ولكن نحنُ مَن يصنع السعادة، السعادة لا تُباع ولا تشترى، لم يَخلُق اللهُ أناسًا سعداء منذ الولادة وآخرين تُعساء؛ كما أخبرتك نحنُ من نصنعها ونجدها مع مَن نُحبُ، أم أنكِ لا تُحبينه؟

- هذا ما يُخيفني، أخشى أن يتركني... أخشى من البقاء بمفردي، أخشى الحبَّ، فجميع مَن أحبُهم غادروا. لا أخفي أني في الآونة الأخيرة أشعر بأنّي ذات لعنة... لعنة تُصيب كلَّ من أحببتهم ليذهبوا، وأخشى أن تُصيب لعنتي (غيم)؛ فيذهب هو الآخر.

- لا نستطيع أن نبقى عالقين بأفكارنا، يجب أن نتحرَّر منها ونخوض تجاربنا الخاصَّة، وكل شخص له الحق في ذلك. يجب أن نحاول ونجرّب لننضج ونستطيع أن نتخذ القرارات الصائبة في حياتنا. لا أحد يغادر هذه الحياة إلا بقدرٍ مقدور، وكلٌّ منا سيعيش قدره حتمًا. أمّا بالنسبة للذهاب

الدنيوي فهو قرارٌ شخصيٌ ولا شأن لنا فيه، فعندما تنتهي المشاعر سيذهب الأحبّاء، ومَن لا يريدنا لن نُلزمه بالبقاء معنا.

- وهل يحبني؟

- لا أستطيع إعطاءك إجابة ملموسة فكل شيء في هذه الحياة قابلٌ للاستهلاك والانتهاء، حتى الحب يمكن أن ينفد وينتهي مخزونه. وربما لا ينتهي، إنما الحياة تعصف بنا إلى طرقٍ مسدودة ليصبح الحبُ فيها عملةً لا تُصرف.

قاطع الحوار عدّةُ طرقاتٍ على الباب، ردّت (سحاب):

- مَن الطارق؟

أجابت فتاةٌ من خلف الباب قائلة:

- لقد جلبتُ لكِ فستان الزفاف، يا سيدتي. أتأذنين لي بالدخول؟

- نعم تفضلي.

دخلت الفتاة وهي تحمل صندوقًا خشبيًا كبيرًا أنهك ساعديها، ذا لونٍ أبيضَ، مُزيَّنًا بشريط حريري ذي لونٍ أزرق، تقدّمت سحاب لتساعدها في حمل الصندوق حتى أوصلاه إلى السرير، وقالت (سحاب):

- إنّه ثقيلٌ جدًا، لِمَ تحملينه وحدكِ؟!

التقطت الفتاة أنفاسها وقالت:

- إنني معتادة.

ثم ابتسمت وأردفت قائلة:

- لقد أخبرنا السيد (غيم) بإيصال الفستان باكرًا، وأنا أعمل في المتجر الذي ابتاع السيد (غيم) منه الفستان، وأتيت بنفسي لأضمن وصوله لكِ وأقوم بمساعدتكِ أيضًا. لقد جلبت معي مستلزمات التزيين.

فتحت الفتاة الصندوق وأطرت على (سحاب) قائلة:

- ستصبحين أجمل عروس في بلدتنا.

ثم بدأت بترتيب الأشياء على المنضدة المخصصة، فقالت (سحاب):

- أريد الاستحمام أولًا، ولا داعي لأن ترهقي نفسك وتخرجي كل تلك الأشياء... لن أضع سوى القليل، فأنا لست معتادة على هذا.

- لا يمكن، يا سيدتي. فهذا أجمل وأهم يوم في حياتك.

- لا بأس، أنا أود أن أضع القليل فقط.

- وهل ستخرج عروس هكذا دون أن تتزين؟ يجب أن تكثري من مستحضرات التجميل، فستصبحين أجمل بكثير، أعدك بذلك.

أجابتها (سحاب) بإصرار وحزم:

- لا يهمني هذا! زينة المرأة يجب أن تكون بعقلها، لا بوضع مساحيق التجميل على وجهها. يجب أن تملك المرأة جمالًا ثقافيًا وعقليًا، لا جمالًا ظاهريًا فقط.

ذهبت (سحاب) للاستحمام، وما إن انتهت حتى بدأت الفتاة بتزيينها بالطريقة التي طلبتها.

أمسكت المشط بيديها، وبدأت تسرّح شعرها بتأنٍ، وكأنها فهمت ما دار في خاطر (سحاب). ثم قالت بصوت هادئ يحمل حكمةً خفية:

- المظاهر مهمةٌ بلا شك، ولا يُنكر أحدٌ أنّها مفتاحٌ يَفتحُ الكثير من الأبواب. فما يُقرّبُ الناسَ منك أولًا هو مظهرُك، لكن ما يُبقيهم حولك هو جوهرك الحقيقي.

أجابت (سحاب) وكأنَّ الكلام قد لامس شيئًا عميقًا داخلها، ثم تابعت بلهجةٍ تحملُ شيئًا من الأسى:

- لكنَّ الكارثة الحقيقيَّة تكمُن حين يتحوَّل المظهر إلى الصورة الأساسية

التي يُقاس بها الإنسان، حتى تصبح تلك الصورة معيارًا يُرضي الآخرين، لكنّه يُفقر الروح. عندما أكرّس كلّ تركيزي، وربما كلّ وقتي، لأجل شيء أعلم في أعماقي أنّه زائلٌ وفانٍ... بينما أهملُ نفسي التي تستحق أن تنمو، وأضيّعُ عقلي الذي ميّزني اللهُ به عن سائر المخلوقات، دون أن أستثمر فيه كما ينبغي.

ابتسمت الفتاةُ بسمةً عابرة، ثم قالت بنبرةٍ تحملُ وعيًا مرهفًا:

- الوعي جميلٌ بلا شك، لكن لكلّ شيء ثمنٌ يدفعه صاحبه. وضريبة الوعي أنّ كلّ ما كان يدهشك في الماضي، سيبدو فجأةً تافهًا في عينيك، وكأنّه لا يستحقُّ كلّ ذلك الانبهار.

وعندما انتهت من تصفيفِ شعرها، بدأت تساعدها في ارتداء الفستان. تبسّمت (سحاب) وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة وتحسّست بيدها الفستان الذي أبهرها جمالُه. فستانٌ ذو قماشٍ مصنوعٍ من الدانتيل، شديد البياض ذو تصميمٍ هادئٍ وناعم، يتوسطه شريطة من الحرير. كان فرحها ممزوجًا بشيء من الرهبة، يتسلل إلى روحها، فناقض شعورها، فذلك الفستان الأبيض، رغم جماله... إلّا أنّه كان محفوفًا بالخوف.

تحدّثت الفتاة قاطعةً حبل أفكار (سحاب):

- نسيتُ أنْ أعطيك شيئًا.

أخرجت الفتاة من مخبئها ظرفًا صغيرًا ومدّتهُ نحو (سحاب)، قائلة:

- إنّها رسالة من السيد (غيم)، تفضلي.

أخذت (سحاب) الظرفَ بحماس وفتحته لتقرأ محتوى الرسالة:

«قمري، أعلم جيّدًا أنّكِ أصبحتِ أجمل من القمر، يكادُ قلبي أن يتوقّفَ لفرط حماسي لرؤيتكِ ترتدين الفستان الأبيض، أجزم بأنّكِ أصبحتِ كالبدر واكتمل حسنكِ الأكمل».

طوت (سحاب) الرسالة ووضعتها في الظرف المخصص لها وهي تُنزلُ

رأسها خجلًا بعدما استطاعت الرسالةُ أن تُخفّف من توترها. تحدّثت إليها الفتاة، قائلة:

- هل تودين الخروج الآن، سيدتي؟

هزّت (سحاب) رأسها إيجابًا، وتسلّل إلى قلبها توتر وارتباك البدايات التي يشعر بها أي إنسان عند خوض أمر جديد، مع وشوشة الذكريات الغائبة... لكنّه لم يكن مجرّدَ ارتباك الفرح، بل وخز حنين إلى وجوه غابت ولم تعد موجودة. شعرت بأنّها وحيدةٌ أكثر من أي وقت مضى، فالوحدة في الحزن جرح، لكنّها في الفرح ندبة تنزف بصمت، حين لا تجد من يبتسم لابتسامتك. خرجت بحلّتها الجديدة وفستانها الأبيض، لكن جمال وجهها القمري كان يطغى على جمال الفستان الذي ترتديه. مرّت عبر فناء المنزل المزيّن بالورد والستائر البيضاء والشموع، تزفّها الأقدار وقلبها يسير وحيدًا؛ فكلُّ مَن تحبّهم صاروا على الضفّة الأخرى من الحياة.

كانت التجهيزات فاخرة رغم أنّها طلبت مراسم بسيطة، لكن (غيم)، ورغم ضيق الوقت، فقد فعل كلَّ ما بوسعه ليكون حفل الزفاف في أبهى صورة. ذهبت إلى المكان المخصَّص لجلوس العروسين حيث كان ينتظرها (غيم)، وما إن رآها حتى نطق دون وعي منه بصوت مسموع:

- ويبدو الوجه، يا قمري، كبدرٍ في ليلة التمامِ. سبحان من سواك لي سبحان ذي الجلال والإكرامِ!

ابتسمت (سحاب) وهي تُنزِلُ رأسها خجلًا، وتقوم بتكوير قبضة يدها محاولةً تهدئة رجفتها، قال (غيم) بصوت خافت:

- الفرح يتوهّج من روحي، لا أستطيع أن أصف لكِ شعوري، لم أنم ليلة البارحة، بِتُّ أعانق بدلة الزفاف خاصتي كطفلٍ في ليلة العيد.

***

وبعد عدّة ساعات، انتهى حفل الزفاف ليأتي الوقت الموعود، وقت

الانتقال إلى حياةٍ جديدة. أمسك (غيم) بيد (سحاب) وذهبا نحو باب الخروج، وقبل أن يغادرا، أوقفهما العم (سامين) وما إن رفع رأسه حتى أنزله خجلًا منها، وقال بصوت متحشرج مدركاً لحقيقة الحياة السوداء التي عاشتها :

- حان الوقت لذهابك أيتها الحمامة البيضاء ، ولكن أردت أن أقول إنني أتمنى لكما حياة سعيدة، وأن تبقي على ما أنت عليه كعادتك - حمامة بيضاء.

أجابته (سحاب) بصوت يملؤه الحزن:

- لكنني لم أعد حمامة بيضاء.

وذهبت نحوه لتهمس في أذنيه:

- منذ أن تلطخت ثيابي بالدماء.

نظر العم (سامين) إليها بحزنٍ شديد، وقال:

- لن تُصدقي أنني حزينٌ على فراقك، لذلك أردت أن أودّعكِ. أتمنى لكِ حياةً سعيدة.

ثم نظر نحو غيم، وأردف قائلًا:

- أوصيك بها يا (غيم).

أجابه (غيم):

- لن يصيبها أي مكروهٍ ما دامت معي. لن أسمح لأي شيء أن يمس شعرةً واحدة منها.

بعد أن انتهى الوداع بينهما، وغادرا المكان ليتوجها إلى مسكنهما الجديد، لاحظ (غيم) حزنَ (سحاب) فحاول مداعبتها، قائلًا:

- يليق بكِ الأبيض، حقيقةً لقد سئمت رؤيتك ترتدين الأسود كصاحبي سعيد في الجيش.

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

لكزته (سحاب) بيدها، قائلة:

- إن لم تترك سخافتك هذه فستموت حتمًا.

- لا تقلقي، لا شيء سيقتلني سوى سيف عينيك.

- لا أريد إلّا أن نحيا معًا.

- سنحيا معًا... أعدك.

الفصل الثامن عشر

يعيش المرء في الوهم ظنًا منه أنّه أمل، ليُصدَمَ بخيبةِ الواقع، كما نظن أحيانا أنّ الحياة ضحكت لنا، ولكن تلك الضحكات ما هي إلا استعداد منها لصفعنا مرّةً أخرى. فبعد أسبوع واحد من زواجها، حيث كانت (سحاب) تظن أنّ الحياة أنصفتها أخيرًا، وقعت في شهر كان يُسمّى شهر العسل، لكن مع الكثير من الأدوية التي كانت تداوي بها (غيم)، أيقنت أن بعض الظنون تبقى ظنونًا.

لطالما خططت لكل نظرة حنونة، وكل كلمة دافئة، ولكلّ لحظة قد تذيب الجليد بينهما، لكنّها وجدت نفسها عالقة في دوامة من الألم، مجروحةً بآلامه هو قبل آلامها، في بعض الأحيان يكون الأمل عقبة لرؤية الحقيقة.

***

كانت أصابع (سحاب) ترقص فوق صفحات الدفتر بسرعةٍ قلقة، وكأنها تخشى أن تسبق الكلماتُ دموعَها. كل حرف تكتبه يحمل في داخله ألف ألم، لكنّها لم تكن تكتب بأحرفٍ واضحة، بل بطريقة تعطي الكلمات تنفُّسًا، كأنّ الكلمات قد تختنق معها.

سمعت صوت (غيم) ينادي عليها، فأمسكت بصحن الحساء الدافئ وتقدّمت نحوه بخطواتٍ خفيفة، وجلست إلى جانبه، واضعةً الدفتر على الطاولة بعيدًا عن عينيه. لكنّه كان أسرع منها، فمدَّ يده ببطء، وحاول قراءة ما سطّرته، فلم يفكّ طلاسمَ تلك السطور المشوَّشة. قال مستفهما:

- لِمَ تكتبين بهذه الطريقة؟

أغلقت الدفتر فجأةً، وكتمت زفرةً عالقة في صدرها.

- لا عليكَ... هيّا، انهض قليلاً لتتناول الحساء.

نهض مُتّكئًا على وسادته، بينما قدمت له الصحن، فسأل بنبرةٍ ضعيفة:

- قمري، ما هذا الشيء الذي أعددته؟

أجابته (سحاب) وهي تأخذ شيئًا منه بملعقتها:

- حساء أعددته خصيصًا لك فهو سيساعدك على الشفاء.

- حقًا أريد أن أشفى، لقد تعبت من هذه الحُمّى التي أصابتني.

ثم نظر باتجاه (سحاب) ووضع يديه فوق يديها، وهو يقول:

- تلكما اليدان هما شفائي.

سحَبت (سحاب) يديها بخجل، وأكمل (غيم) كلامه:

- لقد شفيت الآن.

أخذت (سحاب) تطعم (غيم) رويدًا رويدًا وكأنّه طفلها الصغير، ثم عاد ليسألها، مُصرًّا هذه المرة:

- لماذا تكتبين من دون نقاط؟

وهنا كان لا بُدَّ لها أن تجيب. فقالت بهدوء:

- عندما يضيق صدري... أحاول ألا أُضيّق على الكلمات. أترُكها حُرّةً من دون قيود نقاطها، كي لا تشعر بالاختناق مثلي.

اندهش (غيم) من طريقة رؤيتها للأشياء، وفهم أن بعض الألم لا يُعبَّر عنه بالكلام... بل ربما بالصمت، أو بالغياب. غياب النقاط، غياب الدموع، غياب كل ما هو واضح. فقط السكوت، والكتابة المشوَّشة، قد تعرف كيف تحمل ما لا يُقال.

راح (غيم) مفتخرًا بها يردّد أسماءها التي يناديها بها:

- قمري... جميلتي... ويا وجها مليئًا بالنجوم...

ثُمَّ أمسَك بيده خصلات شعرها، قائلًا:

- تُشبهين القمر، إلا أنَّ الفرق بينكما أنَّ القمرَ به جانبٌ مظلمٌ، أمَّا أنتِ فلا

يوجد ظلامٌ إلا في سواد شعرك.

شعرت (سحاب) بالاستحياء، فبدأت تتناول الطعام، محاولة تجاهل خجلها، في حين ابتسم (غيم) قائلًا:

- غريب، لا أستطيع استيعاب أنكِ لا تزالين خجولة مني، أليست هذه يد زوجك؟ ألم تقولي لي قبل زواجنا كلام أخت هارون: نحن نساءٌ مع رجالنا، ورجالٌ مع غيرهم؟! فها أنا الآن رجلك، فلماذا لا زلتِ رجلًا؟

نظرت إليه (سحاب) وقالت:

- كفَّ عن الاستهزاء بي.

ثم قالت وهي تنهض:

- أنت لا تفكر بمشاعر الآخرين أبدًا.

قال (غيم) مبتسمًا:

- إلى أين ستذهبين؟ لم تتناولي شيئًا بعد.

أجابت (سحاب) بجدية:

- لقد شبعت من كلماتك.

نهض (غيم) وذهب إليها مسرعًا ليطوقها بذراعيه، قائلًا:

- أنتِ محقة يا قمري، من الآن فصاعدًا، لن نُسرف في المال لأنكِ تتغذين على حديثي!

ثم لمسها قائلًا:

- يا لكِ من زوجة صالحة.

قالت (سحاب) بتهكُّم:

- أنتَ لا تجيد شيئًا سوى الغزل والاستهزاء طوال الوقت.

- في الحقيقة، هناك شيء ثالث أجيده جيدًا: العمل، يا قمري.

- ولكنك لم تذهب للعمل منذ زواجنا!

ابتسم (غيم) وقال:

- يجب عليّ الذهاب إلى مصنع القطن وتفقد العمال، لكن وعدي لك لا يزال قائمًا.

ثم ابتسم وأردف قائلًا:

- لا تقلقي، سنغادر من هُنا قريبًا وسأصحبك إلى مدينتي (سوريانا)، وسنبنِي معًا حياةً رائعة، ونقوم بتجهيز المنزل معًا. فالحقيقة يحتاج بعض التعديلات ليصبح ملائمًا للعيش، كما تعلمين كنت أعيش به وحدي.

ابتسمت (سحاب) وقالت بحماس:

- وأنا سأقوم بطلاء جدران منزلنا، سنطليه بالحب والسلام هذا ما أريده.

- لكِ ما تريدين، لكن هناك غرفةٌ خاصة لي ستكون مكتبي وأريد أن تُطلى باللون الأخضر.

- أخضر؟! اختياراتك سيئة.

- ولكن الأخضر يذكّرني بعينيكِ، وأيضًا يرمز إلى الحبّ.

أجابته (سحاب) بتساؤل:

- الحب...؟

أجابها باسمًا:

- نعم، الحب... يظن الناس أن اللون الأحمر يرمز إلى الحب، لكني لا أرى في ذلك صوابًا. فالله حين يبعث الحياة في الأرض، كساها بالأشجار الخضراء، وحين ينتشر اللون الأخضر، تبدو الأرض مليئة بالحب والحياة. لا حياة دون حب، ولهذا، أرى أن الحب لونه أخضر... تمامًا كاللون الذي يسكن

عينيك.

ابتسمت (سحاب) بخجل وقالت:

- وأنا سأطلي غرفتنا باللون الأزرق ليشبه قلبك النقي.

ثم لاحظت (سحاب) الشيب في شعر (غيم) وقالت:

- عندما أرى بعض الخصل من الشيب في شعر رأسك والأخرى في لحيتك، أشعر بأن هذه الشعيرات البيضاء تجلب لي الأمان... فهي تذكرني بأبي... يقول العرب قديمًا عمَّن بدأ يظهر الشيبُ في رأسه أو لحيته: «فلان أقمَرَ ليلُه».

ثم ذهبت إلى الخزانة، وأخذت معطفه وساعدته بارتدائه وهي تقول بحنان:

- لا تخلع المعطف حتى لا تزداد الحُمَّى، استودعتك الله، يا أزرقي.

ابتسم (غيم) وقال:

- استودعتك الله، يا قمري.

ART_OF_BOOK

يقول العرب قديمًا عمّن بدأ يظهر الشيب في رأسه أو لحيته:

«فلان أقمَرَ ليلُه».

ART_OF_BOOK

الجزء الثاني

ART_OF_BOOK

الفصل التاسع عشر

مرت الأيام والأشهر سريعًا رغم مرارتها، لم تكن الحياة كما كانت ترغب بها وها هي الآن (سحاب) بعيدة عن أعين الناس، تتكئ على حصانها (ماقي)، في اللحظة التي انقبض فيها بطنها المستدير. سقطت دمعةٌ وحيدة، نحتت مسارًا على خدها الشاحب، همست وهي تصك أسنانها بصوتٍ يختلط فيه الألم بالخوف:

- رباه... لست مستعدة لوقت المخاض بعد. الطريق أمامي ما زال طويلًا.

لم يكن أمامها خيارٌ آخر، كانت دائمًا ما تسمع مقولة "نحن مخيرون، ولسنا مسيرين"، ولكنّها كانت حقًّا مُسيَّرة ومُجبَرَةً ومُرغمَةً على أن تَعبُر هذا الجسر المشؤوم. ظنّتْ أنه سيكون جسرًا يغير حياتها للأفضل فقرَّرت أن تدفع بنفسها نحو السير عليه دون أن تلتفت للوراء، فلا شيء وراءها يستحق الالتفات، سوى الذكريات البائسة، وحصانها (ماقي). بدأت تداعب خصلات شعره، ثم تلمس وجهه وتقبله، والدموع الساخنة تنهمر من عينيها مودعةً صديق طفولتها والذكرى الجميلة التي تركها لها والدها.

أغمضت (سحاب) عينيها وهي تتذكّر ماضيها مع (ماقي)، قائلة:

- هيا، (ماقي)... أرجوك، اذهب.

أدركت تلك الكلمات وشعرت بغصّة ملأتْ حنجرتها، وأكملت:

- لا تَجعلِ الوداع أصعب، هيا غادر.

كان الحصان ينظر إليها ويهز رأسه بقوة، وصوتُ صهيله يملأ أرجاء المكان... كانت هذه أوّل مرّة يعارض فيها أمرَ خيّالته. سقطت من عيني (ماقي) دمعةٌ وراح يمشي وراءَها ببطء.

كانت (سحاب) قد فرّت من قريتها كظلٍّ مُطارَد، تاركةً وراءها جرمًا يلاحقها كشبحٍ لا ينام. كان كل شيء يجري كما خططت له إلّا ما تشعر به الآن من سكرات الولادة. التي كانت كخنجرٍ ينغرس في أحشائها.

كانت تحاول عبور طريقٍ لا يعرفه أحد، مسافةً شاقّةً قادتها إلى جسرٍ مهجور، يشبه هيكلًا عظميًا ممتدًا فوق النهر الهائج. رافقها (ماڤي) دون أن تمتطيه، فكل حركةٍ ببطنها الممتلئة كانت كالسياط على جسدها المنهك. الجسر كان مهملًا، تآكلت أخشابه وقد نخر عظامه الزمن.

لكنّه كان ملاذها الوحيد من أعين الملاحقين. فلو اختارت الجسر الأقرب، لربّما لاحقها أحدٌ من ذلك الطريق، وعادوا بها إلى نجاسة عمها.

في اللحظة التي وطأت فيها قدمُها الخشبة الأولى، انهمر بلل الولادة الدافئ. كأنّ النهر من تحتها قد تسلّل إلى جسدها. تيبّست قدمها، وجحظت عينها من الرعب. لم تكن مستعدّةً لهذا المشهد، بعيدةً عن أيادي القابلات، بعيدةً عن دفء البيت الذي لم يعد بيتًا. حاولت أن تنزع ملابسها بيدين مرتعشتين، وكأنها تحرّر نفسها من قيود العالم كلّه. استلقت على الأرض بصعوبة، وكأنها تتمدّد في هاويةٍ لا قاع لها.

توالت الصرخات، كأنها ندباتٌ تُنقش على جسد الليل. أنفاسها تتصاعد وتنقطع، كشمعةٍ تحترق بسرعةٍ قبل انطفائها، نبضات قلبها تتسارع، وتتصارع بين الحياة والموت، في تلك اللحظة القاسية بعذابها، شعرت أن الموت أقرب إليها من أيّ شيءٍ آخر...

***

اقترب (ماڤي) من وجه (سحاب)، وكأنّما يحاول أن يقرأ في عينيها أسرارَ الكون المُعلّقة بين الحياة والموت. كان الصمت مُخيّمًا على جسدها المنهك، لا صوت إلا أجيج النهر الغاضب وهو يصفع ضفافه بعنفٍ، وكأنّه يرثي لمسامعه ما سيأتي. وفجأة... انشقّ صمت العالم بصيحة الاستهلال الأولى للطفل. ارتعشت (سحاب)، وتناثرت دموعها كالندى على بتلات الزهور، بينما تحاول أن ترفع ظهرها المُثقل بالآلام لتلتقي عيناها بأعين وليدها.

حملته بين ذراعيها المرتعشتين، كان ثقيلًا كجبل على قواها الخائرة.

لم تعرف ما الذي عليها فعلُه، فمسحته بأطراف أرديَتها، ثم لفّته بوشاحها البالي، كأنّها تُغلّف خلقًا هشًا قبل أن يطير. قطعت حبلَه السُرّيّ بخنجر الصبر الذي امتلكته، وزحفت قليلًا بعيداً عن بقعة الدم، بينما دموعها تُكمل مسيرها على خديها. احتضنته بقوّة الخائف من الفقد، وهمست باسمه كأنها تُلقّنه أولَ درس في الوجود:

- (مطر)... يا (مطر).

لم يكن المكان سوى بقعة عارية من الرحمة، لا سقف يحميها إلا السماء البعيدة، ولا أنيس إلا بكاؤها الذي التهمته الوحدة. كان عليها أن تواصل السير، رغم أنّ جسدها كان أشبه بخرقة مُمزّقة. نهضت بتثاقل، وكأن الأرض تُمسك بقدميها، ومشت نحو الجسر الخشبيّ الذي بالكاد كان يستطيع تحمُّلَ وزنها الخفيف، كان ينئ تحت وطأةِ غضب المياه. ومضت حتى وصلت إلى منتصفه، حاملةً في يدها فلذة كبدها.

حاول (ماقي) اللحاق بها ولكنّه لم يستطع، كانت عتبة الجسر ضعيفة ولا تسمح له بالعبور بسبب حجمه، فراح يصهل بصوتٍ عالٍ ويقفز مترجيًا إياها ألّا تذهب، ثم دفع نفسه في النهر وراح يتعفر بمياه النهر سابحًا وراءها ليلحق بها، أمّا (سحاب) فضمّت صغيرَها النائم بكل قوة نحو صدرها وراحت ذاهبة نحو الموت بخطواتٍ بطيئة وبتركيز عالٍ... فمع أي خطأ، ستغرق هي وصغيرها. وما إن اقتربت (سحاب) من نهاية الجسر حتى ابتسمت مخاطبةً صغيرَها:

- بعد خطوات قليلة، سأستطيع منحك حياةً مختلفة يا (مطري)... لن اسمح لهم بأخذك منّي.

فاستجاب لها طفلُها بابتسامة طفيفة وكأنّه يقول لها: أنتِ أقوى أمٍّ يمكن أن يحظى بها أيُّ طفلٍ.

فابتسمت له وهي تنظر إلى جوف عينيه قائلة:

- أنت ألطف طفلٍ وعوضٍ يمكن أن تحظى به أيّة أم.

ولكن فجأة علا صوت صهيل حصانها بطريقة غريبة، فالتفتت إليه لتراه غارقًا في النهر ولا يظهر منه سوى عنقه، وبخطوة خاطئة اختلّ توازنها وانزلقت قدمها فهوت بجسدها نحو الماء.

حاولت أن تتشبّث بأقدامها ولكنّ قوة التّيار سمحت للنهر بأن ينقضّ عليها، لم يكن لديها قوةٌ للمقاومة، ولا حتى للصراخ. كل ما بقي لها هو الدعاء بكلماتٍ تذوب مع تيار الماء.

راحت المياه تتلاعب بجسدها يَمنةً ويَسرةً، وهي لم تُنزل يديها اللتين تحملان طفلها الوليد، كانت ترفعه إلى الأعلى؛ لكي لا يمسّه مكروه من هيجان النهر، وسمحت للنهر بأن ينهش من جسدها ما يشاء.

دائمًا ما يقدّمن الأمهات أرواحهن من أجل أطفالهن، حينما يرون أطفالهن يحظون بشيء ما فبالتالي هنّ يحظين به أيضًا، ربما ليس بشكل ملموس إنما شعورٌ نابع من الداخل.

حاولت (سحاب) الصمودَ كثيرًا، مرة تعلق أقدامها في صخرة فتأمل النجاة، ومرة يمرُّ بجانبها جذعٌ كبيرٌ فتحاول الإمساك به، وظلّت على هذه الحال لساعات حتى ساورها الاعتقاد بأن صغيرها لم ينجُ.

يداها بدأت ترتخيان، ولعدة مرّات كان الماء يغمر رضيعها، لكنها كانت تخرجه بسرعة.. وبكلّ ما امتلكت من بقايا قوّتِها. كانت تودُّ أن تكون له أمًا وأبًا، أن تأخذه إلى حياة أفضل. لكنّها شعرت حينها بأنّها أخذته إلى هلاكِه، وهذا كان أشد عليها من كلّ شيء.

***

أخيرًا، استطاعت الخروج من ذلك النهر الذي رفض ابتلاعها، إنّما قذف بها نحو ضفافه. وبدأت تلتقط أنفاسها بصعوبة وهي تنظر إلى طفلِها الذي كان كالجثّة الهامدة.. هرعت، تحاول إخراج الماء الذي ملأ جوفه، ضغطت عدّة ضغطات متتابعة بأطراف أصابعها على صدره لعلها تسعفه، لكنّه لم يتحرك

ART_OF_BOOK

أو يخرج منه صوت، فظنّت أنّه لم ينجُ.

أخذت (سحاب) تضمّه نحو صدرها باكيةً وهي ترفع رأسها نحو السماء، وبصوت سجين للعبرات تقول:

- اللهم لا تجعلني من القانطين... ولكن كم ستبتر أجزاء من قلبي بعد؟!

وراحت تصرخ بصوتها المذبوح، وتحدّث صغيرها بصوت متقطّع:

- عندما رُزقتُ بكَ ظننتُ أنّ حفرة الفقد الذي تستحوذ على قلبي سشملأ من جديد، والآن أبكي عليك... فما هذه اللعنة التي أصابتني؟!

وأخذت تحتضنه بقوة واضعة وجهها على وجهه، وفجأة شعرت بلسانه يتذوق دموعها، فنظرت، فإذا به يلعق دموعها التي أغرقت خدّيها، فازداد بكاؤها وهي تلقمه ما كان يحتاج إليه.

***

في ظل تلك الأحداث الغريبة، والمدهشة، والحزينة كانت هنالك فتاة تقترب منهما وهي تنظر إليهما بنظراتٍ توحي بشدة تأثُرها، مظهرةً غشاوة من الدموع، ومن ثَمَّ هرعت إلى (سحاب) لتطمئنّ عليها، ورفعت يديها نحوها قاصدةً العون والمساعدة، ثم أخذت الفتاة (سحاب) وصغيرَها نحو منزلها الذي يقع في تلك البقعة الخضراء من هذا العالم البائس.

الفصل العشرون

في جوف كلِّ منّا حزنٌ دفينٌ، والفضفضةُ كالنّبش في دواخلنا وكشف الأسرار التي باتت دفينة في تلك البئر التي تكمن في الأعماق الغائرة في قلوبنا، فالكتمان كثياب نستتر بها عن حقيقة أوجاعنا، فلا بُدّ للإنسان ألّا يكون عاريًا أمام الجميع.

مرّت ثلاث ليالٍ من مصارعة الحُمّى التي أُصيبت بها (سحاب) بعد تلك الحادثة.. في تلك الأثناء كانت هي وطفلها الرضيع تحت رعاية الفتاة المنقِذة.

بدأت بفتح عينيها ببطء وجهد تدريجيًا، كانت مُنهَكةً أشدّ الإنهاك، بعد غيبوبة دامت لثلاثة أيّام بسبب حرارتها المرتفعة، وبعد ساعات من الاستفاقة المتقطعة تمكّنت أخيرًا من تبيُّن ملامح تلك الفتاة. كانت نحيلة القوام ذات شعرٍ أحمر وبشرة بيضاء وعينين تشبه حبة اللوز، ابتسمت لـ(سحاب) قائلة:

- هل استيقظتِ تمامًا؟!

حاولت (سحاب) النهوض، ولكن جسدها المنهك لم يسعفها في الحراك، فاكتفت بما يمكنها استكشافه من خلال عينيها.. كانت متمددة في غرفةٍ صغيرةٍ ذات جدرانٍ خشبيَّة، كانت اللوحات والأسلحة: كالبندقية، والسيوف، والأسهم موزعةً على جدران الغرفة، نظرت نحو الفتاة لتقول بقلق:

- أين طفلي؟ وما الذي أفعله هنا؟!

أجابت الفتاة محاوِلةً تخفيف قلقها:

- انظري، إنّهُ بجانبك ويتمتع بصحة جيّدة، ولكن هل أنت بخير؟

ثم أخذت الرضيع ووضعته بين أحضان (سحاب) قائلة:

ART_OF_BOOK

- إنّه جميل جدًا، ما اسمه؟

ابتسمت (سحاب) ابتسامة طفيفة تخالطها الرهبة، ثم أجابت:

- مطر.

- إنه اسمٌ جميلٌ جدًا، وأتوق لمعرفة قصة هذا الاسم، فلا بُدّ أنّ له قصةً ما، أليس كذلك؟

ابتسمت (سحاب) وأومأت برأسها، في حين أكملت الفتاة:

- ولكن ليس الآن، فلا بُدّ أنّكِ متعبة... استريحي، ولا تقلقي فأنتِ وطفلكِ بأمان.

ثم اتجهت نحو الباب للخروج، ولكن أوقفها صوت (سحاب) وهي تقول:

- ولكن من أنتِ؟

التفتَت نحوها الفتاةُ قائلة:

- أنا اسمي (سيلاي)، وأنت ما اسمك؟

أجابت (سحاب):

- اسمي (سحاب)، اسمكِ غريب و...

لم تَدَع (سيلاي) (سحاب) تُكمِلُ كلامَها، فقد فهمت مرادها، ولم تشأ أن تتعبها أكثر في الحديث، فأخبرتها بأنّها تعيش في مدينة تبعُد عن مدينتها، في منطقة فيها ثقافة مغايرة ولغة أخرى، بعد أن استطاعت تخمين بلدة (سحاب) من خلال لهجتها، فلبلدة (سيلوز) لغة مميزة.

اقتربت (سيلاي) وجلست بجانب (سحاب)، وقالت:

- لا تتعبي نفسك، انطقي اسم البلدة فقط، إلى أين كنت تودين الذهاب؟

تنهدت (سحاب) وأجابتها بحزن:

- أردتُ الذهاب إلى مدينة (سوريانا)، لأتّجه إلى أقرب مركز شرطة، أريد

أن أقدّمَ شكوى.

كان الفضول يقتل (سيلاي)؛ تريد أن تعرف كلّ صغيرة وكبيرة عنها، ولكنها كانت تخاف عليها من أن تتعبَ، ولكن عندما راحت (سحاب) تسهب في الإجابة، تشجّعت (سيلاي) لتأخذ منها المزيد من الإجابات، فسألت:

- بحق من ستقدمين الشكوى؟

- بحق عمّي كي يدعني وشأني.

- يبدو أن هناك قصةً كبيرة، أنا بطبعي فضولية، ولكن هذه المرة سأسألكِ عن السبب لأطمئن فقط.

- أعلم أنّ الأمرَ غريبٌ، فسأخبركِ بكل شيء.

راحت (سحاب) تحكي قصة هربها من عمّها الذي أراد أن يزوجها بعد أن تنتهي من نفاسها، بحجّة أن عليها أن تعيش بكنف رجل بعد أن شعر بأنّ زوجَها لن يعود ثانية.. ولكنّها قرّرت الهرب قبل أن تضع وليدها.

استمعت (سيلاي) بإصغاء لكلّ كلمة قالتها (سحاب)، وعندما توقفت (سحاب) عن إكمال حديثها قالت (سيلاي) بعد لحظات من الصمت:

- أريد أن أعطيك معلومة عني يا (سحاب): إنّ (سيلاي) فضوليّةٌ جدًا وستفتش عن كل صغيرة وكبيرة إلى أن تأخذ ما تريده؛ لذا سأسبب لكِ الصداع في الأيام القادمة، ولاختصار الوقت من الأفضل أن تخبري تلك الفتاة الفضولية بالحكاية وتقصري مشقة الطريق على نفسك.

ثم ابتسمت في وجه (سحاب) وهي تُربّتُ على أكتافها، قائلة:

- سأذهب لإحضار الطعام الآن، فلقد صنعت لك حساءً لذيذًا يُسمّى حساء الشفاء، يحتوي على كثير من الخضروات المفيدة والزنجبيل وبعض الأشياء التي ستساعدك على الشفاء. هذا الحساء لا يشتهر في بلدة (سيلون) كثيرًا لكنه يشتهر في مدينة سكاي وهو بمنزلة الدواء، سأذهب لجلبه انتظريني لدقائق.

نظرت إليها (سحاب) بدهشة وهي تقول:

- ماذا قلتِ؟ مدينة ماذا؟!

وضعت (سيلاي) يدها على فمها وعلمت أنّها تفوهت بشيءٍ كان يجب أن تكتمه، قالت (سيلاي) بأسى:

- يا إلهي، لم أكن أريد أن أخبرك أين نحن الآن كي لا تصابي بالصدمة، سأخبركِ سرًّا آخر عن (سيلاي).. (سيلاي) ليست فضوليّةً فحسب، إنما فاشلة أيضًا بالكذب وكتم الأسرار.

أجابتها (سحاب)، وما زالت الصدمة تعتريها:

- لم أفهم شيئًا، وضّحي أكثر إذا سمحتِ.

- أنت الآن على أطراف مدينة سكاي، وهي إحدى المدن التي على حدود نهر سبل، وهذا يعني أنكِ في مقاطعة مختلفة كليًا عن بلدة سيلوز.

قالت جملتها تلك وتركتها ذاهبة نحو المطبخ، أما (سحاب) فقد أخذت طفلها محتضنةً إياه بشدة وهي مندهشة مما حصل. عادت (سيلاي) إلى الحجرة وبيدها طبقٌ من الحساء والبخار يتصاعد فوقه، ووضعته على الطاولة المجاورة للسرير وانحنَت باتّجاه (سحاب) ومدت يديها، قائلة:

- اسمحي لي أن آخذ هذا الكائن الصغير الجميل ريثما تتناولين الطعام.

ابتسمت (سحاب) ومدت لها طفلها وبدأت تحتسي شيئًا من الحساء، لكن غيابها عن الوعي لمدة أيام صعب عليها مهمة الهضم، فاكتفت بالقليل.

ما إن انتهت (سحاب) من الطعام ووضعت الطبق جانبًا حتى قالت:

- إنه لذيذٌ جدًا... سلمت يداكِ، أشكرك على كل شيء يا (سيلاي).

ابتسمت (سيلاي) وقالت لها:

- ألن تكملي حكايتك؟ يقولون إن الفضفضة جيدة للمرء فهي تشعره

بالراحة.

- في الحقيقة أنا ضد الفضفضة.

- لا تأخذي الموضوع على هذا المنحى، فأنا وأنتِ صديقتان من الآن وصاعدًا ومن واجبك كصديقة أن تخبريني عن كل شيء يحصل معكِ، ومن واجبي الاستماع لكِ والمساعدة، ومن الواضح أنكِ تحتاجين إلى الاثنين معًا.

- أخشى الإفصاح عما بداخلي... أخشى أن أتحرر من قيودي.

- أليس الجميع يطمح للحرية؟

- ليس في جميع الظروف تكون الحرية هي المبتغى ففي بعض الأحيان تحمينا القيود كثيرًا.

زفرت (سيلاي)، وقالت:

- لم أقتنع لا زلتُ مُصرَّةً على أن تُخبريني، أين والد مطر مثلًا؟

- حقيقةً هناك الكثير من الأشياء التي أكتمها، ولكني ربما أخشى الإفصاح عنها أو ربما لم أجد أحدًا لأخبره بها.

- الآن يوجد، أنا هنا. فمن الآن فصاعدًا لديك صديقة تستطيعين إخبارها عن كل شيء.

ثم مدَّت يدها قائلة:

- ألن تصافحي يد صديقتك الجديدة؟ أم أنكِ لا تريدين أن أكون صديقتك؟

- أنا صديقة الجميع، ولكن من الصعب أن يكون أحدهم صديقي! فأنا صديقةُ الأشياء التي تُشبهني، أمَّا البشر، فتكفيني منهم التَّحايا العابرة.

فكرت (سيلاي) قليلًا في كلامها، ثم قالت؛ لتكسر حديَّة الحوار:

- جيد، سأكون مميزة وأصبح صديقتك الوحيدة لعلّي أخفف عنك الهموم التي أرهقتكِ.

طأطأت (سحاب) رأسها وامتلأت مقلتاها بالدموع، ثم أجابت بصوتٍ باكٍ:

- لم ترهقني فحسب، لقد انتزعت مني كلّ شيءٍ، يا (سيلاي).

أعادت (سيلاي) الطفل إلى أحضان (سحاب) وربّتت على كتفها، قائلة:

- ليس بعد يا (سحاب)، لا يزال صغيركِ بين أحضانك. انظري إلى ذلك الوجه اللطيف.

ابتسمت سحاب وهي تنظر إلى وجه صغيرها، ثم قالت:

- أنتِ على حق، فوجوده كان بمنزلة استنشاق الهواء الذي يلقاه المرء بعد الغرق، إنه النسمة الرطبة في حياتي الجافة. لا أدري كيف تمكن من البقاء رغم كل ما حدث له أثناء الولادة.

حكت (سحاب) قصة إنجابها عند النهر، والقسوة التي مرّت بها، وكيف كنت تبعد عن الموت خطوة واحدة. لم تستطع (سيلاي) منع نفسها من البكاء، وبدأت تتساءل بصوتٍ متقطع إثر بكائها:

- آهٍ ... كيف قويتِ على هذا بمفردك؟

- لقد فعلتها، وانتهى الأمر.

- لماذا لم تعودي إلى بلدتك وتطلبي العون.

- سيستغرق ذلك وقتًا طويلًا لامرأة وصل بطنها لأعلى أنفها، فبطبيعة الحال سيكون سيري بطيئًا جدًا كما لو أنني سلحفاء، وأيضًا خشيت أن يعلم عمي بوجودي هناك ويحتجزني مجددًا.

تدفقت الدموع من عيني (سيلاي) وهي تقول:

- لم ألتقِ بامرأةٍ قويّةٍ مثلك من قبل.

- لستُ قوية، لقد أُجبِرتُ على القوّة، فالضعف لم يكن من ضمن الخيارات المتاحة.

بدأت الأفكار تتوارد في ذهن (سيلاي) الفضولي، فأخرجت ما كان في قلبها:

- وأين هو والد الطفل؟

- أنت تعبثين في ذكرياتي المؤلمة يا (سيلاي)، لماذا تقومين بنبش جروحي الخامدة؟

شعرت (سيلاي) أنّها قد تجاوزت حدودها، وأحنت رأسها قائلة:

- أعتذر، يا (سحاب)، ولكن كان يجب أن أعرف لأساعدك.

ثم ابتلعت ريقها ورفعت رأسها لتقول بحزم:

- أين والد (مطر)؟! هل فرّقكُما الموت؟

- في بعض الأحيان، يموت أحباؤنا، ولكن في قلوبنا، بينما تبقى أجسادهم تتأرجح في الخارج.

أدركت (سيلاي) أن ثَمّة مشكلات بينهما، وأكملت حديثها قائلة:

- ولماذا لم يساعدك؟ يستحيل أن يعرف ما جرى لكِ دون أن يفعل شيئًا حتى وإن لم تكونا متفقين. لا يمكن أن تكون علاقتكما قد انتهت تماما.

تنهّدت (سحاب)، ثم قالت متألمة وكأنها تخرج شوكًا من جوفها:

- ليست الكارثة في أن تنتهي العلاقة، بل الطامّةُ الكبرى أن يرحل دون تفسير، أن يترك وراءه علامات استفهام تنهش القلب والعقل معًا وتُبقي الروح معلّقة بين الانتظار والتأويل.

ثم حدّقت في رضيعها بنظرات حانية، وقرّبته إلى صدرها بلطف، تحتضنه وكأنّه العناق الأخير، وراحت تفكر في مستقبله، ثم قالت بصوت يملؤه الشجن:

- أنا الآن لا هدفَ لي إلّا أنْ أحافظ على هذا الصغير. لا أريد أن يعيش حياةً قاسيةً. لا أريد أن يعيش حياةً كحياتي أو حياةَ خاله (سديم) أو حتى أن يعيش مثل (سوما).

قطبت (سيلاي) حاجبيها بعد أن سمعت ذلك الاسم الجديد. فقرأت (سحاب) الاستفهام في وجهها وأكملت:

- إنّها طفلة نالت من قسوة الحياة ما يكفيها، وقد عرفتها في آخر يوم رأيت به زوجي.

بدأت (سحاب) تستعيد شريط أحداث حياتها البائسة لترويها لـ(سيلاي)، التي أصبحت الملجأ الوحيد لها، فبدأت تتجرد من عبء أسرارها التي حملتها طوال الفترة الماضية.

***

كانت (سيلاي) مُنصتة بفضولها القاتل لـ(سحاب) التي بدأت تقصُّ عليها قصَّتها:

«أذكر ذلك اليوم جيِّدًا، كان الصباح هادئًا حين غادر (غيم)، لكن على غير عادته، خرج دون أن يلتفت للوراء. بقيتُ وحدي بين الجدران، تُخيِّم عليَّ سحابةٌ من الصمت لم أعتدها. لكنَّ تلك الوحدة لم تَدُم طويلًا...

فجأة، انقضَّ أحدهم على الباب يدقه بقوة. خفق قلبي ظنًّا مني أنَّ (غيم) قد نسي شيئًا ما، فعاد مسرعًا ليأخذه. هرعتُ نحو الباب، ولكنَّ ما رأيته كان غريبًا.

كانت عند الباب فتاةٌ لا يتجاوز عمرُها أربعة عشر ربيعًا، جسدها النحيل يرتعش كورقة خريف في مهبِّ الريح. نظراتي سقطت أولًا على قدميها الحافيتين والمتشققتين المُلوَّنتين بخطوطٍ دموية صنعتها أشواك الدروب الجافَّة.. سألتُها وصوتي يكاد ينكسر من شِدَّة الخوف الذي تملَّكني عليها:

- أتريدين شيئًا؟

ابتلعت الفتاة ريقها، وقد لفحت وجنتيها حمرةٌ خفيفةٌ. ثمّ همست بصوتٍ مرتجف، كأنّه يُنهَش من قسوة العالم:

- هل أستطيع الدخول؟ أشعر بالبرد...

***

أذنت لها بالدخول، وطلبت منها الجلوس في غرفة المعيشة، وذهبت نحو المطبخ لأجلب لها الماء. تناولت من يدي الكأس وبدأت تشرب المياه لتروي ظمأها الشديد، ثم جلست بجانبها وأنا أقول:

- ما بكِ، يا عزيزتي؟

فأجابتني بإجابة لم أتوقعها:

- أريد البقاء عندك فترة من الزمن.

فوجِئتُ بطلبها الجريء والصريح، وقلتُ باستغراب:

- وأين عائلتك؟

خفضت الفتاة رأسها، وأخبرتني بانكسار أنَّ والدتها متوفاة، وأنها تعيش مع أبيها وزوجته، وأنَّها تتعرَّض لتعنيف من قِبَلِ زوجة أبيها، فقلت لها باستغراب:

- وأين والدكِ من كل هذا؟

- إنَّه يعمل طوال النهار ولا يعود إلا حين تُشارِفُ الشمس على الغروب. ولا يعود إلا وهو متعب أشد التعب، فينام حتى الصباح؛ وفي تلك الأثناء، تمارس تلك المرأة جميع أنواع الأذى عليَّ.

حينها رأيت في وجه تلك الفتاة سحاب اليتيمة التي عاشت حياتها في قسوة اليتم ووحشة الوحدة، بدأت دموعي تنساب، حاولت منعها أمام تلك المسكينة لكيلا تشعر بالشفقة - رغم أنَّ قلبي كان يتمزَّق لرؤيتها بتلك الحالة، قلتُ لها محاوِلةً تغيير ما يُكدِّر صَفْوَها:

- ما رأيكِ في حمّامٍ ساخن؟ أرى يديك ترجفان من البرد.

كانت فتاة جميلة، ذات وجه قمحي وعينين ناعستين، تملك رموشًا كثيفة وشعرًا أسودَ ينتهي عند أكتافها، وكانت هادئة جدًا، وعلى ملامحها مشقة الحياة والبؤس الذي عاشت فيه في هذا العمر الصغير.

بدأتُ أصفّفُ شعرها وكأنها أختي الصغيرة... لطالما تمنيت أن يكون لدي أخت. بدأت أهتم بها وأعوّض النقص الذي بداخلي، ولكن فجأة، سمعنا صوت الباب وهو يُطرق بقوة، شعرت وكأن الباب سينخلع من شدة الضرب عليه، ثم نظرت إليها فوجدتها تختبئ في زاوية الغرفة وهي ترتجف بشدة، اقتربت منها وقلت محاولةً تهدئتها:

- لا تخافي، فقط ابقي هادئة ريثما أعود، أعدُكِ ألّا أترُككِ وحيدة، ولن يصيبَكِ أيُّ أذى.

ثم خرجت، وإذا بي أرى ولدًا صغيرًا يسأل:

- أرأيتِ فتاة سمراء، شعرها أسود وقصير؟

كانت تلك المواصفات تنطبق على الفتاة التي دخلث منزلي. فأجبته بحزم:

- لا، لم أرَها.

انصرف الفتى وكنت سأقفل الباب، ولكن فوجئت بسالم (خطيبي السابق) الذي كان يقف بالقرب من باب المنزل، فقلت له باستغراب:

- ما الذي تفعله هنا؟

- لقد رأيت تلك الفتاة تدخل إلى منزلك.

دُهِشتُ حينما قال لي ذلك، وحاولت نفي الأمر، لكنني لم أستطع. فأكمل كلامه:

- ستدخُلين في متاعب لا حملَ لك بها، لن تستطيعي حمايتها طوال

العمر.

لم أكن أريد التحدُّث معه أكثر، بالرغم من كلماته التي ذكرتني حقًا بعواقب فعلتي. فهممت لأغلق الباب، لكِنّه قال لي قبل أنْ أحكِم إغلاق الباب:

- يمكنني أخذها إلى المدينة وتسليمها إلى مركز الشرطة، سيكون ذلك أفضل حلٍّ لكِ ولها.

أجبته بلهجة غضب:

- ما الذي تقوله؟! تسليم فتاة في الرابعة عشرة من عمرها، وتركها في المدينة بين أيدي الشرطة؟

- قبل أنْ تتورَّطي في تهمة خطف.

لم أفكر بهذا الأمر قَطُّ، كل ما أردته هو حماية الطفلة، كيف استطاع هذا الرجل إشعال القلق في داخلي هكذا، ولم ينصحني بهذا الشكل المقنع، لم أكن أعلم مبتغاه بالضبط، وبينما كنتُ شاردة أكمل كلامه ليخرجني من ذلك الشرود..

- هناك أماكنٌ تُدعى "دور الرعاية"، توفِّر للأطفال المأوى، والطعام، والتعليم. أمَّا هنا في هذه البلدة الصغيرة، فالنَّاس يعرف بعضُهم البعضَ وإذا لم يُكتشف الأمر اليوم، فسيُكتشف غدًا لا محالة!

صَمَتُّ لثوانٍ، ثُمَّ قلت بعد تفكير طويل:

- وكيف سأذهب إلى المدينة الآن؟

- أنا من سيأخذها.

كان اقتراحه كخنجر غُرزَ في صدري، كيف لي أن أثق به، وما أدراني بنواياه، فقلت له بأني لن أدعها تذهب إلى أي مكان إلا وقدمي ترافق قدمها، وهنا تغيرت ملامح (سالم) واختنق وجهه، لم أعرف لماذا، ولكنه بعد

لحظات من التفكير، قال بأنه سيوصلني إلى أحد الصيادين الذين يعرفهم جيّدًا، وسيطلب منه أن يأخذني عبر النهر إلى المدينة؛ فوافقت.

***

أخذت بعض ما نحتاجه وسرت وأنا أمسك بيد (سوما) نتبع خطوات سالم، متجهين نحو النهر، ومشينا على ضفافه حتى وصلنا إلى مكان القارب حيث كان الصياد يمارس عمله. تحدث (سالم) معه قليلًا ثم اقترب بقاربه نحونا لنركب. ركبت (سوما) أولا، ثم حاولت أنا الصعود لكن قدمي انزلقت في الطين قليلًا؛ فأمسكني (سالم) من خصري ليساعدني، ورفعني فاستطعت الركوب بالقارب، وتركنا (سالم) وأكملت مع الصياد الذي لم يتحدث معنا بكلمة.

في تلك اللحظة شاهدت شيئًا صادمًا، لم أحسب حسابه أبدًا، ولم أعلم حينها ما العواقب التي ستلاحق تلك اللحظات، كان (غيم) ينظر من بعيد مكتّفًا يديه يراقب القارب وهو يتّجه بنا نحو المدينة، لم ينادِ أو يلوح بيده ولم يتجه نحونا، كان يقف كالتمثال فقط لا أكثر.

***

بعد ساعة ونصف من التجديف، بدث ملامح المدينة تتّضح، قال الصياد كلماته الأولى:

- ها قد وصلنا، هيا، سوف أوصلكم إلى مركز الشرطة فأنا أعرف مكانه، اتبعوني.

ترجلنا جميعًا من القارب واتجهنا نحو مركز الشرطة. سارت (سوما) بجواري متشبّثة بيدي كأنّها وجدت في تلك اليد ملاذًا آمنًا بعد طول خوف، فلم أستطع أن أمنع نفسي من التربيت على يدها برفق، وفي داخلي كان صراع الأفكار مشتعلًا: هل ما أفعله صحيح؟ هل ستعيش الفتاة بأمان هناك؟ ماذا لو أساءت دار الرعاية معاملتها؟

ولكن أعادني إلى أرض الواقع صوت الصياد وهو يقول:

- ها هو المركز.

توقفنا أمام مركز الشرطة، في حين تمعنت بالنظر إليه وأنا أرجو أن نجد ضالّتنا في هذا المكان، ثمّ نظرتُ إلى الفتاة وقلت لها بهمس:

- لن أتركك وحيدة، أعدك.

دخلنا المركز وكان صوت الباب المعدني وهو يُفتح كصوت صفحة جديدة في حياة تلك الفتاة، صفحة كنت آملُ أنْ تكون أفضل من سابقتها. ذهبت نحو أحد العساكر لأسأله عن قسم الشكاوى، فأشار العسكري إلى نهاية الممر.

دخلنا غرفة المدير، فطلب الضابط منّي أن أروي ما حدث ليتّخِذ الإجراءات اللّازمة. ابتلعتُ ريقي وبدأت أسرد له ما حدث، وما إنِ انتهيتِ حتى نظر المدير إلى الفتاة ليطلب أخذ إفادتها بشكلٍ منفصل، ولكنّها كانت خائفة ومتمسّكة بشدة بيدي كما لو كانت تبحث عن الأمان في هذه اللحظة الصعبة. شعرت بخوف الفتاة فطلبت من المسؤول أن يأخذ إفادتها وهي برفقتي؛ نظرًا لحالتها الصعبة. فوافق رغم أنّ هذا الإجراء كان مخالفًا للقانون.

بعد مدة، لاحظْتُ أنّ الفتاة تنظر نحو المدخل الرئيسي للمركز وهي مرتبكة، ثم أمسكت بيدي بقوّة، وبدأت أنفاسُها تتسارع واختبأت خلفي، وتمسكت بي كأنّها لا تريد أن تُترك وحدَها. وقبل أنْ أسألها عما تشعر به، ظهر رجل ضخم البنية طويل القامة، يرتدي ملابس بالية، وعلامات التعب بادية على وجهه. كان برفقته امرأة قصيرة وبدينة للغاية بدت كأنها مربع، ملامحها غريبة، وعيناها الغائرتان مليئتان بالكحل، وتبدو ملامحها كأنها تختفي تحت حجم وجهها الممتلئ. قالت المرأة بغضب وهي تشير بيدها:

- انظر، ها هي... هناك!

توجُّها مسرعَين نحونا، وبدأ الرجل يتحدّث بغضب:

- ما الذي تفعله ابنتي معك؟! اقسم أنني سأقدم شكوى ضدك.

كانت الفتاة ترتجف خوفًا وعيناها قد اغرورقت بالدموع، فتقدمتُ نحو الرجل وقلت بحدة:

- أولًا، ماذا فعلتَ بهذه المسكينة؟! أمّا بالنسبة للشكوى، فأنا أيضًا سأرفع شكوى ضدكما، أنت وزوجتك!

تقدمت المرأة نحوي وقالت بغضب:

- ماذا تقصدين بالشكوى؟!

أجبتُها بازدراء:

- هل هذا ما لفت انتباهك في كل ما يحدث الآن؟

ثم أشحت بنظري بعيدًا عنها، والتَفَتُّ نحو الأب، وقلت:

- لن أسمح لك بأخذها، ولن أسمح لك أن تمسّها بسوء، كيف تجرّأتَ على تركها هكذا؟!

أرسل الأب نظرة شديدة اللوم نحو ابنته، وقال:

- لماذا فعلتِ هذا يا (سوما)؟ كنت أظنكِ الكبيرة العاقلة، كيف تصدر منكِ مثل هذه التصرفات؟ ألم أكن أبًا كافيًا لكِ؟ ألم أقدم لكِ كل شيء؟ ألم تعاملك هذه المرأة كأمٍّ؟ لماذا فعلتِ ذلك؟!

بدأ الأب يقترب من ابنته بخطوات بطيئة، وكأنَّ الكلمات التي قالها أثقلت قلبه. كنت أراقب الموقف، بنظرات كانت خليطًا من الغضب والخيبة، لكن الغضب هو الأكثر وضوحًا في عينيه. أما سوما فكانت تبكي بصمت، تنساب دموعها بهدوء وهي تختبئ خلفي، وتقول هامسة:

- أرجوكِ، لا تتركيني... لا تسمحي لهم بأخذي.

سمعت ما قالته ثم قلت بصرامة:

- لماذا لا تسأل زوجتك؟ لماذا لم تعتنِ بها كما ينبغي؟ لماذا تركتها وحيدة في هذا العالم؟ كيف سمحتَ لها بالخروج بهذه الطريقة؟ هل كنتَ أبًا صالحًا لها؟ الله وحده يعلم ماذا حصل لهذه المسكينة في منزلكم! ربما كانت تبحث عن الأمان الذي فَقَدَتْه بين جدران ذلك المنزل.

قاطعت المرأة البدينة كلامي بلهجة غاضبة:

- لا ينقصها شيء! الله وحده يعلم لماذا خرجت، ربما هي من تبحث عن مشكلةٍ!

في تلك اللحظة جاء صوت الضابط منبها على الجَلَبَةِ التي في المكان فدخل الأب مسرعًا إلى غرفته معرفًا نفسه:

- أنا والد الفتاة، وهي ليست ضائعة أو ما شابه.

طلب المدير من الفتاة أن تؤكد ما قاله والدها، وقد فعلت، ثم طلب الأب أن يسمح لهم بالرَّحيل والتستُّر على الأمر حتى لا تشيع سمعة سيئة عن الفتاة وعائلتها. وبالفعل تم ما أراد. لم أستطع حينها فعل أي شيء بعدما قال لي والد (سوما) بأني إذا اعترضت، فسيقدَّم شكوى بأني قد قمت باختطاف الفتاة، فانهمرت دموعي وأنا أُفلِتُ يد الفتاة التي كانت تتشبث بي بقوة.

خفضت من صوتي وأنا أتوسل إليه بأن يعتني بها أكثر من ذي قبل، ثم اعتذرتُ عن المشاجرات التي حدثت وعن العدوانية التي تعاملتُ بها، وقلتُ بلغة ناصحة:

- حينما يعصف الجوع بالإنسان في بيته، سيبحث عن لقمة تسد جوعه، حتى لو كانت قمامة في الشارع، غير مكترثٍ بما تحمله من أدران.

ثم أخذتُ نَفَسًا عميقًا وتابعت حديثي قبل أن أمضي:

- وجوع الأرواح للحب، أشد من حاجة الأجساد إلى الطعام!

عانقت (سوما) والدموع تملأ عيني، وهمست في أذنها:

- لا تجعلي شر الحياة يعتم نقاءك يا (سوما)... إياكِ والضعف، فالضعفاء يُدهسون دون رحمة.

ثم نظرتُ إلى المرأة وهمست لها:

- إنَّ ربَّ السماءِ يرى كلّ ما يحدث في أرضه ... ولا يحب الظالمين أبدًا.

***

صمتَت (سحاب) لثواني معدودة، ثم أكملت حديثها بصوتٍ حزين وكأن كل كلمة تخرج من فمها تحمل وجعًا دفينًا:

"ثم جاءت الصدمة الكبرى أو ربما القاضية، حينما عدتُ في ذلك اليوم ولم أجده، انتظرتُه، لعلَّه يعود، ولكن مرَّ اليوم الأول، ثم الثاني، والثالث، واستمرَّت الأيام في العدّ حتى تحولت إلى شهور... ولم يأتِ... في البداية، شعرتُ بالقلق عليه وظننتُ أنَّ مكروهًا قد أصابه، ذهبت إلى مكتبه ولم أجده، فقصدت مصنع القطن، لكنني لم أجده هناك أيضًا. حتى الموظفون لم يكن لديهم أدنى فكرة عن مكانه، حاولتُ أن أكتم أمر غيابه، ولكن ما إن علم عمي بالأمر حتَّى بدأ بمضايقتي والاستهزاء بي، مما وضعني تحت ضغط نفسي كبير جدًا. ومع ذلك، لم يتوقف عن المضايقات والسخرية، إنما رفض أنْ أعيش بمفردي فأجبرني على الذهاب معه إلى منزله... وبهذا عدت مَرَّة أخرى إلى قعر جحيمي حاملةً ذكريات الماضي البائس كالعتادِ".

أمسكت (سيلاي) بيد (سحاب)، تحاول أنْ تواسيها بلمسة حنونة بعد أن لمعت في عينيها الدموع، فوقع بصرها على كدمات زرقاء في معصم يدها. أخذها الفضول، ورفعت كم ثيابها، فإذا بساعديها يحملان ذات الزراق، ويدها الأخرى تحمل آثار الكدمات نفسها. كان واضحًا أنها تعرضت للضرب حديثًا.

فَهِمَتْ (سحاب) ما كان يرتسم على شفاه (سيلاي) من أسئلة فضوليّة،

حتى وإن لم تُنطق بها، وتابعت حديثها:

«لقد ساءت معاملة ذلك المتوحش أكثر من ذي قبل. في كل فرصة، أتعرض لضربٍ وحشيٍ لا ينتهي إلا بعد أن تُصاب يداه بالملل ويشهد جسدي الدامي على عنفه، ولا يكترث لتلك الروح النائمة بداخلي. وعندما ذهبت لأرسل رسالة إلى (غيم)، تأخرت في العودة إلى المنزل حتى شارفت الشمس على المغيب، ولاحظ غيابي، وعندما عدت علم بما أرسلت... ولم تبقَ شتيمة لم يلقِها عليّ، قائلًا بأني بلا كبرياء أو كرامة. ثم بدأ يضربني بكل ما أوتي من قوة، غير مكترث لمكان الضرب. ركلني في بطني المنتفخ، وكنتُ في الشهر التاسع. كانت حركة الجنين كأنها إشارة تمرُّدٍ خفيٍ، يرفض أن يكون جزءًا من هذا الظلم، يعلن وجوده رغم كلّ القسوة المحيطة حتى لم أعد أستطيع تمييز ما إذا كانت تلك الركلات تأتي من الخارج أم من الداخل، حينها شعرت كم أنّ طفلي يتألم معي، ويمكنني رؤية حركته تتردد تحت جلدي... كأنّنا نتعرض للضرب معًا. صرخت من شدة الألم حتى تقطعت أحبال صوتي، وبعد أن انتهى تركني وهو يُهدّد ويشتم، حاولت الزحف إلى سريري، وأنا أجرُّ خلفي أذيال خيبتي وأحزاني، وثقل بطني يضغط عليّ، ويُضاعف كلُّ ألم، وكلُّ دمعة مكبوتة تكاد تنزف.

أخذت الدفتر القريب، الذي يحمل رائحة والدي، ليخفف وطأة حسرة الشوق عليّ. فكرت كيف أستطيع استخراج الحكمة منه، تلك التي قال لي عنها يومًا، ولم أجد شيئًا، أخذني التفكير بمصير تلك الروح التي ستأتي على هذه الحياة قريبًا شعرت بمرارة وقلق شديد؛ أغمضت عينيّ وأنا أطلب من الله أن يُغيثني ولم أطلب شيئًا سوى أن يولد طفلي بأمان، وأن يحيا بعيدًا عن هذا الظلم الذي أتعرض له، ثم غفوت من شدة الألم والجروح النازفة في جسدي.

وفي منتصف الليل، شعرتُ بيد تداعب خصل شعري برفق. فتحت عينيّ، وإذا بالطيف قد عاد إليّ مُجَدَّدًا، زائري الذي غاب منذ زواجي. كان يأتي كلَّما تضيق بي الدنيا، وكلما دعوت: "اللهم أنت تعلم بحالي فأغثني" جاءني

مخففًا عني، يذكرني بكلماته السابقة التي لم أفهم معناها حينها، ولكن بعد أن عدت إلى دائرة العبودية مَرّة أخرى، وكأن حياتي تعيد تاريخها من جديد، أيقظتني جملته: إن لم نستطع إيقاف الشر، فسيتفاقم.

ثم عزمت بعد ذلك على الرحيل.

ذاتَ يوم، جاء إلى منزلي أحد الأشخاص الذين يعرفهم، اسمه (سراج) وأخبرني أن (غيم) قد ذهب إلى مدينته (سوريانا)، وتنازل عن جميع أملاكه في بلدة سيلوز لي، وطلب مني هذا الرجل أن أوقّع على بعض الأوراق لتثبيت نقل الملكية لي».

قاطعتها (سيلاي):

- إن كان لديه مصنع وشركة فهذا يعني أنك امرأة ثرية.

- لا، لقد رفضت... لن آخذ شيئًا من شخص لا يرغب بي، فأنا أيضًا لا أرغب بأي شيء منه.

قالت (سيلاي) متسائلة:

- ولماذا لم تحاولي الذهاب إلى مدينته؟

- لقد تركني ولم يعد يرغب بي، فلماذا أذل نفسي من أجل رجل؟

- ولكنه شريك حياتك! لأجل حبكما... لماذا لم تفعلي شيئًا؟

أجابتها (سحاب) مطأطئة رأسها بانكسار:

- أرسلتُ له رسالة، كان لدي أملٌ في أن يرد عليّ، ولكن مرت بضعة أيام ولم يصلني منه أي ردٌّ.

- وماذا عن (مطر)؟ أيعلم بوجوده؟

- لا أظن، حتى أنا لم أعلم بوجوده إلا بعد فترة، حينما تعرضت للضرب من عمي، وتسبب لي ذلك بنزيف شديد، وفقدت الوعي حينها فجلبوا لي قابلة القرية لتعالجني، حينها علمت منها أنَّ هناك روحًا تسكن أحشائي.

وهكذا علمتْ بوجوده، مضايقات عمي كانت تزداد يومًا بعد يوم؛ فلم يكن أمامي سوى الهرب.

صرخت (سيلاي) باندفاع مقاطعة حديث (سحاب):

- كم أتمنى أن أصفع ذلك الأحمق وأنزع الشعرات الثلاث التي على رأسه!

أجابتها (سحاب) باسمةً:

- لا أعلم كيف تنجحين في إضحاكي في كلّ مَرّة! ولكن كيف علمت بشأن تلك الشعرات؟

- ألم تصفيه لي منذ قليل؟ يبدو أنّ ذاكرتك بدأت تخونك يا صديقتي!

أخذت (سحاب) نفسًا عميقًا، وقالت:

- ليتني أنسى... ليتني أنسى كل ما حدث. كنتُ دائمًا أجاهد في ساحة معارك النسيان ...كنتُ أجاهد نفسي كالتائب الذي يجاهد من أجل الابتعاد عن العصيان.

- كل شيء يؤلمنا قابل للنسيان، فالجروح تندمل وتُشفَى.

- ولكن ماذا لو أصبحت ندوبًا؟

- ستبقى معنا طيلة حياتنا، وكلما حاولنا نسيانها أعادتنا إلى الذكرى البائسة.

- ظننت أنك فتاة فضولية فقط، ولكن ما هذه الحكمة؟

أجابتها (سيلاي) بغرور:

- أنا لست خالية الوفاض ... بالتأكيد!

***

وقفت (سحاب) تحدّق في طفلها النائم، بينما اخترق القلق أعماقها. وهمست بصوت يرتجف:

- لكنَّ الخوف ينخر أنسجة دماغي... يا (سيلاي).

رفعت (سيلاي) حاجبيها، ونظرت إليها بتساؤل حادّ:

- لماذا؟

التقطت (سحاب) أنفاسها المتكسرة، وكأنها تحمل العالم على كتفيها:

- ماذا سأفعل وحدي في هذه الحياة؟ لا أملك قوت يومي... كيف سأربّي هذا الصغير؟

انتفضت (سيلاي) وقالت وصوتها يقطر غضبًا مكبوتًا:

- أشعر بالغضب منك، ماذا تقصدين بأنك وحدك، ولكن هذا ليس حديثنا الآن. سأسامحك هذه المرّة.

ثم أكملت بعد أن تنهدت:

- آهٍ... لكِ قلب كبير وجميل يا (سيلاي)! كم أحب نفسي.

ثم أكملت حديثها بنبرة جادة أكثر، وقالت:

- قد تحسبين أنَّ الكوخ الذي نحن به الآن منزلي، ولكنه في الحقيقة مكاني السري الذي آخذ فيه فترة نقاهة بعيدًا عن ضجيج مدينة سكاي.

ثم أشارت بيدها نحو الأفق:

- إن لي منزلًا آخر في قلب المدينة سنذهب إليه معًا.

فتحت (سحاب) فمها لتعترض، لكنَّ (سيلاي) قاطعتها بنظرة حادة، وكأنّها تقرأ أفكارها:

- لا تتسرعي! نفِّذي ما أقول لكِ أولًا... ثمَّ اعترضي.

قالت (سحاب):

- أتعلمين؟ في بادئ الأمر عند مقابلتك، قلت في سرّي: ما هذه الفتاة البلهاء التائهة!

ART_OF_BOOK

التفتت (سيلاي) إليها ببراءة حقيقية، وعيناها تضحكان قبل شفتيها:

- أخبريني بصدق... ألست أجمل بلهاء مرّت في حياتك!؟

فانفجرتا معا في ضحك عالٍ، يملأ جدران الكوخ الخشبيّ.

ART_OF_BOOK

الجزء الثالث

ART_OF_BOOK

الفصل الحادي والعشرون

- لم أفهم إلى الآن مَن الذي ترك الآخر، (أنتَ) أم (سحاب)؟!

كان هذا سؤال الطبيب النفسي الذي لجأ إليه ذلك الرجل بعد انهزام دام لأشهر، كان عليه أن يُخرِج ما بصدره إلى مَن يقدرُ على تحليله، فلم يجد طريقة سوى هذه. قال وهو يتمدد على أريكة مريحة في عيادة الطبيب:

- أمي التي بدأت.

صُدِمَ الطبيب مما سمع، فلم يحدِّثه (غيم) عن أمه قط خلال الجلسات الماضية، وكان ظنُّه أنَّها قد فارقت الحياة منذ زمن طويل. شرد الطبيب وكأنَّه يحاول أن يغرس أنظاره في عمق الجرح، باحثًا عن جذور المشكلة... فالشكُّ ليس طبعًا نولد به أو نرثه، بل ثمرة أحداث زعزعت ثقتنا بمَن حولنا، فقال بنبرة هادئة:

- إن كان لديك ما تود إخباري به، فقل.

وبالفعل كان هنالك الكثير من الأشياء التي أراد (غيم) البوح بها، فأغمض عينيه بعد نفس عميق وبدأ الحديث مسترسلًا دون أية مقاطعة، كان يتحدث بكلِّ شفافية وتلك الخصلة البيضاء تنساب على جبينه... باردًا، ثابتًا يقول الأحداث كما جرت دون أن يُلبِسَها ثوبًا من التأليف والتزييف، أو يمررها عبر دهاليز الرماد، حتى إنَّه لم يخجل عندما كان يفصح عن ماضٍ كان أحدُ أبطاله أمَّه، وما كان من الطبيب إلا الإنصات:

«لم يكفَّ الماضي عن مطاردتي، وهذه إحدى أصعب اللعنات التي قد تُصيب الإنسان. الماضي كدوامة، مهما أردت الخروج منها لن تستطيع. لقد أردتُ ترك الماضي القبيح الذي خيَّم على حياتي، وأن أعيش الحاضر، ولكن الماضي كان له رأي آخر... كلما حاولتُ الهروب منه، عاد كالشبح؛ لينقضَّ على واقعي...

كنتُ في الخامسة من عمري، وأحيانًا أتساءل كيف لطفلٍ في ذلك العمر

أن يتذكّر كلّ تلك التفاصيل؟ الأصعب هو فقدان أهمّ عنصر في حياة أيّ طفل. كلُّ طفلٍ يرى والدته هي القدوة، هي الأمان، وهي أجمل امرأة على وجه الأرض! ولكن تخيلات ذلك الطفل الذي لا يزال في عامه الخامس لم تَدُم طويلًا، فعندما رأى أمّه الجميلة في ذلك الوضع تغير كل شيء.

كانت ليلةً حالكةَ الظلام، وفي الخارج عراكٌ شديد بين الهواء وأغصان الشجر، حيث انتصر هواء العواصف على الشجرة الضعيفة وكسر جميع أغصانها. ولم تكتفِ تلك العاصفة بذلك، بل إنّ زوابعها أصابت حياتنا أيضًا، فقلبتها رأسًا على عقب. أصوات الأبواب والنوافذ كانت تُطرق بشدة، وكأي طفلٍ ارتعش قلبي خوفًا فذهبتُ مسرعًا إلى الحضن الدافئ الذي سيؤمّن خوفي ويهدّئ من روعي. وضعت يدي على مصراع الباب دفعته ودخلت، مرت عيني في أرجاء الغرفة ولم أجدها فخرجت أبحث عنها، وإذا بي أسمع أصواتًا تأتي من المطبخ، توجهت بخطوات بطيئة دون أن أُصدر صوتًا حتى وصلت إلى باب المطبخ فوجدته شبه مغلق، نظرت من شق الباب، لأرى أمي ومعها رجل يشبه أبي، لكنه ليس هو. لمحت شاربه الذي كان يلمع من انعكاس نور طفيف، فعرفته جيّدًا، إنّه عمي.

لم أدرك المصيبة التي أمامي، وببراءة طفل، تراجعت إلى الوراء حتى التصقت بجدار الدرج الذي يكمن وسط المنزل فاختبأت تحت الدرج كالقطّة الهاربة من البرد القارس، وإذا بأبي يأتي من الجهة الأخرى ليفتح الباب ويهمّ بالدخول إلى المطبخ، وما إنْ دخلَ حتى بدأت اسمع صوت صراخه. تراجعت أمي إلى الوراء خائفة، وليست إلّا لحظات حتى بدأ الصراخ يتعالى، وضعت يديّ على أذنيّ محاولًا كتم أصوات صراخهم التي ملأت أرجاء المنزل.

ازداد ضجيجهم وعلا بين تهديد وصراخ ورجاء، وفجأة، انقطع كل شيء، فرفعتُ يديّ عن رأسي، ونهضت من زاويتي التي اختبأتُ بها لأذهبت بخطواتٍ حذرة لأرى أبي مغشيًا عليه يعانق الأرض الباردة، وأمي تندب فوقه محاولة إيقاظه. كنت أظنه نائمًا، فسألت بصوتٍ خافت يملؤه الخوف،

وبعقل طفل بريء وساذج:

- لماذا ينام أبي على أرضية المطبخ، يا أمي؟

وما إن رأتني حتى نهضت بسرعة لتحضني، حينها بدا على عمي الارتباك والرهبة فقال بصيغة الأمر لأمي:

- خذي (غيم) من هنا بسرعة، وأنا سأتولّى الأمر.

لم يكن لديّ حينها أدنى فكرة عن كيفية تولّيه الأمر، وأيضًا لم أفهم سبب نوم أبي على أرضية المطبخ، لماذا لا ينام في غرفة نومه وعلى سريره وفراشه الدافئ؟ لماذا اختار أن ينام على أرضية المطبخ الباردة؟ وبعد عدة ساعات، بدأ كثير من الناس يتردّدون تباعًا على منزلنا. وبكلّ سذاجة أقول في نفسي ماذا يفعلون؟ أفواج من الناس يجلسون في منزلنا على مدار ثلاثة أيام، وكان الكثير منهم يقبلونني بحفاوة وحرارة ويمسحون بأيديهم على شعري. وهم يرددون: في المسح على رأس اليتيم ثواب.

صدقًا لم أكن أفهم حينها ما هو اليتم؟ لأنّ عمي (سفيان) لم يجعلني أشعر به، بل كان يعاملني بحنانٍ لا يقل عن حنان أبي. ولم ينتابني فضولٌ حينها إن كان يضمر لي غير ذلك أم لا؛ لأنّ الأطفال لا يشكون بنيّات غيرهم، ويصدقون ما يرونه فقط، ولكن ما إن نكبر نبدأ نشك بكل شيء؛ لأن حقيقة الواقع المرير لا تتوافق مع خيالنا كأطفال؛ فمن المستحيل أن يكون الجميع جيدين، ولذلك نحن البشر نُصدق كل شيء عدا الحقيقة؛ لأنّها مؤلمة وصادمة، لذلك دائمًا نسمّي الأشياء بأسماء تغير من حقيقتها ونتوهم بالكثير من الأمور لتمويه الحقيقة؛ لأنّ الحقيقة أكبر من أن نصدقها.

وكلما سألت أمي عن مكان أبي كانت تجيبني بأنّه ذهب إلى السماء، وكلما سألت عن طريقة لأذهب إليه كانت تجيب بأننا جميعًا سنذهب إلى السماء ذات يوم غير معلوم.

كان عمي يقدم لي العناية اللازمة والاهتمام، وكان دائمًا يمسح على رأسي بحنو، وكأنّه حقًّا أبي، فصرت أناديه باسمٍ جديد "أبي (سفيان)"

وبدأت أتقبل وجوده هو والخصلة البيضاء التي ظهرت في مقدمة رأسي، لم يكن الشيب وليد السنين، بل ذكرى حادّة انغرست في داخلي وطفت على مظهري.

كان يعاملني بلطف وحنان يفوق حتى حنان والدتي، ويعلّمني كلّ شيء عن العمل دون أن يبخل بأي معلومة، حتى لو كانت صغيرة. عندما كنت صغيرًا، لم يخطر ببالي سبب هذا الاهتمام، لكن حين كبرت أدركت الحقيقة؛ هذا اللطف لم يكن نابعًا من أخلاقه السامية، بل كان مجرد محاولة يائسة ليريح ضميره عن فعلته الوضيعة في الماضي.

وعندما بلغت من العمر أربعة عشر عامًا، بدأت تفاصيل تلك الليلة القبيحة تظهر في عقلي بشكل آخر، كأنما قام أحدهم بتعديل روايتها مَرّة أخرى. وبعد أن صار العم (سفيان) بالنسبة لي هو أبي (سفيان). وبدأت أكبر يوما وراء يوم وظهرت علامات البلوغ على جسدي تدريجيا.

كان ذلك التغيير بعدما عدت إلى المنزل في أحد الأيام، بعد أحاديث طويلة مع أقراني من الشباب، كان كلُّ شيء سمعته منهم متعبًا ومخلًا وجعلني أرى الأشياء من منظور آخر غير ذلك المنظور الذي يرى منه الأطفال.

سقطت على الفراش وأرخيت عضلات جسدي وأغمضت عينيّ لأدخل في سُباتٍ عميق، ثُمَّ استيقظت فزعًا والعرق يتصبب من جبيني، وصدري يتعالى لزفيري دون سابق شهيق، أخرج زفيرًا بصعوبة، لم أستطع تصديق حلمي أم حقيقتي القبيحة، لا أعلم... ولكن لا أستطيع إدراك حقيقة أن تكون تلك الجميلة الحنونة في موضع الخائنة، لم يُخيَّل إليَّ أن تكون بذلك الموقف الوضيع، وماذا عن أبي؟ وماذا عن الرجل الذي أصبح مكان أبي؟

كل تلك الأحداث كوَّنت صراعًا شديدًا داخلي، وشعرت أن عقلي سينفجر إثر تلك البراكين الناشبة فيه، ثم نهضت وأنا ألتقط أنفاسي والصراع والذكريات في حفل صاخب يتراقصان في خلايا دماغي؛ ظنًا منهما أنه

المسرح لاحتفالهم الذي يقومون به كل ليلة! بعد ذلك الحلم، كنت أحاول الرجوع إلى الحاضر، وكنت دائمًا ما أفكر في نفسي، هل حدث ذلك بالفعل؟ هل حقًّا ذلك الرجل الحنون فعل تلك الفعلة الوضيعة؟ وماذا عن تلك المرأة الجميلة؟

يشعر المرء بأن أمّه هي حياته وصوابه وجميع ما هو جميل، فعندما يتعارض منطقه مع توقعاته تكمن الكارثة، ومن الصعب جدًا أن يدرك الحقيقة، فالبعض منهم يختار العيش في الوهم ويكون جبانًا عند مواجهة الحقيقة. وأنا كنتُ أحد هؤلاء الجبناء، فكنت أفرُّ هربًا من الحقيقة التي في داخلي، واخترت العيش في وهم الاستقرار رغم أفكاري التي تتلاطم في رأسي، لكن لعنة الماضي لم تتركني وشأني.

كان الحلم يتكرر دائمًا ولم أجد حقيقة ما حصل تلك الليلة: هل مات أبي بسبب صدمة ما رأى؟ أم ذلك الرجل الذي يملك حنان العالم بأكمله تسبب في موته؟ أم توهم أبي شيئًا قبيحًا فيما رأى وأساء الظن؟ أحقًّا لم يكن بينهما شيء؟ كان هذا الخيار الذي لطالما أقنعتُ نفسي به؛ لأنّي لم أرَ يومًا شيئًا يحدث بينهم كالأزواج الآخرين، حتى أمي كانت تشاركني الغرفة لعدة سنوات، حتى طلبتُ منها أنْ أستقلَّ بغرفة منفصلة؛ لأنّني لم أعد ابنها المدلل الصغير. حاولتُ جاهدًا ربط الأحداث، ولكن في كل مرة تبوء محاولاتي بالفشل؛ حيث لا أخرج بنتيجة.. ينتابني شعورٌ بالهرب... أود تحطيم كل شيء أمامي، لطالما حاولت الهروب من المنزل وكأن هذا سينسيني الماضي، ولكني لم أنجح، سوى أني انفصلت عنهم في بيت آخر، وصبغت جدرانه بالأسود كالظلام الذي بداخلي. حاولت ترك الماضي، ولكنه لم يتركني. ومن هنا، تكونت لدي شخصية مليئة بالشكوك تتساءل عن كل شيء، واختفت الثقة من حياتي، وهذا ما جعلني أهرب، فحين نتألم، نميل إلى الهرب؛ ظنًّا منّا في أننا إنْ غادرنا، قد يخفف ذلك من ذروة الحزن».

قال (غيم) جملته الأخيرة وصمت طويلًا، فقال الطبيب معقّبًا بعد أن ربط المعلومات التي اقتبسها من كلّ الجلسات:

- ولأنك رأيت ذلك الرجل يمسك (سحاب) من خاصرتها ويرفعها في القارب، شككتَ بزوجتك وتركتها؟

- لقد نبش ذلك الموقف نصفي القديم. فذلك الرجل كان خطيبها، ولا أدري ماذا حصل بينهما قبل ذلك.

- وكيف استطعت التخلص من الشكّ الذي كنت تعيش به؟ لا بُدّ أن هنالك ما حدث لينزع منك ذلك الشكّ!

- قبل أن أعرفها كنت أشك بكل شيء حولي، بنفسي، بعائلتي، وبالأصدقاء... لم أجد في حياتي الطمأنينة قط، فقط صراع وكابوس واقعي يتكرر في منامي دون توقف. حتى وجدت السلام ذات يوم، عندما كنت أمتطي حصاني الأسود وأتجول في إحدى البلدات الصغيرة لألتقي بتلك السحابة المليئة بالغيث، ولأجد ذلك الوجه القمري الذي سيضيئ عتمة ظلام الماضي. كانت حقًّا كالقمر المنير في جوف الظلام، ولا أبالغ حينما أقول بأنّ روحي ألفتها من أوّل نظرة، لم يكن حبًّا من أوّل نظرة كما يُذكر في هراء العاشقين، بل كان الأمر أعمق من ذلك، كأن أرواحنا هي من التقت. كانت تشبه القمر، وكان قلبي يعرفها قبل أن تراها عيناي. نسجتها السماء خصيصًا من أجلي؛ لتلمس روحي، كنتُ كالسيف في صلابتي، وهي كالغمد الذي يحتوي جنوني ويحميني من الضياع في ظلامي. أحببتها كثيرًا، وشعرت بأن عنائي وعذابي سينتهيان أخيرًا، وسأستطيع بحبها دفنَ الماضي، فقد كان حبي حقًّا صادقًا.

كان الطبيب ينتظر من (غيم) أن يكمل، ولكن عندما طال صمته، قال:

- اسمع يا (غيم)...من خلال خبرتي الطويلة، أستطيع أن أجزم أنّ اللبنة الأولى لبناء شخصية ناضجة ومتزنة عاطفيًا تبدأ من أول تجربة جنسية وعاطفية يمر بها الإنسان، ليس بالمعنى الجسدي بالضرورة، بل في طبيعة الارتباط المبكر مع الجنس الآخر... وفي أغلب الحالات، تتشكل هذه التجربة داخل إطار العلاقة بالأم أو الأب، بغض النظر عن جنس الطفل. فإن كانت

هذه العلاقة آمنة، صحية، ومتوازنة، فإنّ الفرد ينمو وهو قادر على تكوين روابط مستقرة ومتينة في المستقبل.. أمّا إذا كانت معقدة، مؤلمة، أو غيرَ سويّةٍ، فإنّ الشخص يدخل عالم العلاقات وكأنّه يحمل حقيبة ثقيلة، تثقل كلّ خطوة يخطوها نحو الآخر... الكثير من المرضى الذين أعالجهم يضيّعون سنوات في علاقات فاشلة، يتخبّطون بين انجذابٍ مدمّرٍ ونفورٍ غير مُبرّرٍ، دون أن يدركوا أنّ الجذر الأعمق لأزمتهم يعود إلى تلك البدايات المشوّهة، فهم إمّا يكررون النمط المؤلم نفسه، أو يهربون من كلّ ارتباط خوفًا من إحياء ذلك الألم القديم.

لم يقاطع (غيم) الطبيب وكأنّه يتّفق معه بكلّ كلمة قالها، ولم يعقّب كذلك، رغم أنّ الطبيب كان ينتظر منه أن يسترسل بالنقاش، ولكنه شاهد حالته قد غدت أصعب من أن يطلب منه إكمال حديثه، فانتهوا في تلك الجلسة عند تلك الكلمات، التي استمرّ صداها يتردد في المكان.

الفصل الثاني والعشرون

دخل (غيم) منزله وكأنّه يحمل جسدًا آخرَ، أخفّ من ذي قبل. الهواء البارد الذي لامس وجهه عند العتبة كان ينطق بشيء من السلام، أو هكذا شعر بعد جلسة طويلة مع الطبيب النفسي.

اتجه إلى غرفته، حيث الصمت يرحب به كصديق قديم. على مكتبه، كان الصندوق الخشبي الصغير ينتظره، كان يضم كومة من الرسائل المغلقة والمُشمَّعة بالشمع الأزرق، كلها موجهة إليه بخطوط متشابهة، كلها كانت تُرسَل من دون عنوانه، فالمرسل كان يكتفي بوضع عنوان البريد، الذي لا يعرف غيره، على أمل أن يذهب (غيم) هناك ويبحث عن أيّ شيء جاء يحمل اسمه.

جلس على حافة السرير، ثمَّ مدَّ يده بتردد نحو الصندوق. فتح الغطاء ببطء، وكأنّه يخشى أن تندفع منه الذكريات المحبوسة. رائحة الورق القديم تفوح في الغرفة، مع مزيج من الحبر والزمن الضائع.

التقط إحدى الرسائل، كانت بداخل ظرف باهت، عليه ختم شمعيّ أزرق صغير. كان يشعر بأنّ قلبها بين أصابعه، ثم توقف عند اسم المُرسِلَة (سحاب).

فتح الظرف بيد مرتعشة، وبدأ يقرأ:

"أين العهد وأين ما عاهدتني؟ قلتَ لي: إنّك ستشاركني وحدتي، وأخبرتني أنّني لن أجلس وحيدة على النافذة بمفردي عندما أشاهد السماء، وأنّك ستكون برفقتي ولن يكون قمرًا في جوف ليلك غيري، ستكون نورًا وضياءً لظلمتي، وفي الثالثة فجرًا ستنجيني من حيرتي وبيديك تمسح ما يهطل من الجفون ليغرق وجنتي، وعندما تجتاحني الأفكار السوداوية حيث الجنون، تسير بي، إلى الصواب ستقودني، وإنْ مال رأسي بكتفك، فستسندني. كنتُ إنسانةً حذرة، فلماذا أغويتني؟ ومِن واقعيتي أخرجتني، وسردتَ كلّ ذلك الهراء... فصدّقتُك، ويا أسفي عليك ولذاتي ولذكاء عقلي!

هل أنت سعيد؟ سعيدٌ بهدم قوانيني ومملكتي وكياني؟ لماذا غزوت ديارِي وعزمت على الرحيل فهجرتني؟ أعانِي من مَرارة الخسارة، وعدم قوَّتي، وهشاشتي، وضعفي وقلة حيلتي. والآن صدري ينطوي على بعضه، أتسمع صوت سحق أضلعي؟ ها أنا اليوم وسط المعركة، أحارب العجز وحدي... ألم يكن الاتفاق فيما بيننا ألا تكون خصمي؟ والآن، أراك ترفع سيفك في وجهي وتشهره نحو صدري لتغرزه بأعماق كبدي ... ولم تنصرني. الخيبة احتلّت أرضي واقتلعت زهرةَ شبابي، ولن أحظى بحياة أخرى مِن بعدك، أنتَ أبَدتَ أملي وهدمتني، كنّا سنحيا معًا، فكيف لك أن تقتلني؟ وبجميع الأنام فقدتُ ثقتي، وبالبقاء نفد شغفي. أشعر بأنّ جميعهم وحوشٌ تريد نهبي، أعيش بخوف يعتريني، وبضياع يخنق يقيني، وبهلاك يفنيني، وفي سجونك حبيسًا زججتَ بي. قمتَ بتعذيب قلبي وجعلته يدمى ويصرخ بأنين ونحيب إلى أن فقد الوعي، وها أنا ذا أتلوّى من ألمي، ولم تشفني كما كان الوعد، إنّما أصبحتَ سقمي. لا تقلق، فأنا الآن لستُ أبكي، لقد جفّت مدامعي، فمتى سيكون الرجوع؟ وأي طريق إليك يؤدي؟ فمنذ رحيلك وأنا كاليتيم بات شعوري، ومن ذلك اليوم المسموم لم تشرق شمس فجري. غد ومن الموت أنقذني، اخرج من مقبرة قلبي وأسعفني، ها أنا أتجاهل كبريائي، فهل لنا أن نلتقي يا أزرقي؟!".

***

سقطت دمعة على الورقة، فابتسم (غيم) بحزن لأول مَرَّة منذ أشهر، سمح لنفسه أن يشعر بأن يتذكر بأن يؤلمه الحب الذي ظن أنَّه دفنه في مكان بعيد. كل كلمة كانت كإبرة تثقب جدار الصمت الذي بناه حول قلبه. لكنَّ الألم هذه المرة كان مختلفًا، كأنَّه ينظف جرحًا قديمًا من القيح.

الفصل الثالث والعشرون

لا تنظر إلى البشر بتلك السذاجة التي تُخيّلُ إليك أنّهم ملائكةٌ ضلّوا الطريق... فربما هم شياطين تتخفى في قوالب من لحمٍ ودم، بل قد يتجاوزون في وحشيتهم كل ما نُسِبَ إلى الشيطان من فجور.

لقد عرفوا حقيقة الشر، فانحازوا إليه بإرادتهم، وساروا في دروبه بخطى واثقة، لا تلوي على شيء. عبروا الأيام والأحداث كظلٍّ خبيث. ينفّذون إرادة الظلام بلا تردد، حتى ضاعت براءة النفوس الطاهرة، وتحولت الأفكار السامية إلى جراح نازفة، لم يعد للنقاء فيها مكان.

استطاعوا أن يُسمّمُوا مَن حولهم، فحوّلوهم إلى نُسَخٍ مشوهة من ذواتهم، كالوباء الذي لا يكتفي بقتل الجسد، بل يُفسد الروح أيضًا. وهكذا، حين تستيقظ غريزة الانتقام، ويترسخ الحزن في الأعماق حتى يصير جزءًا من النفس، تتحول الأفكار إلى كوابيسَ حية... وإذا استسلم العقل لها، صارت واقعًا لا مهرب منه.

ولم يكن (سراج) بمنأى عن هذا المصير، فقد حمل في قلبه ثقلًا من الألم بعد أن خان صديقه وأذاع سره، لكنه لم يختز طريق الندم ليكفّر عن ذنبه، بل اختار أن يغسل عارَه بيده.

***

عندما أدرك (سراج) حقيقة خيانته لصديق عمره، ومنذ تلك اللحظة والحزن ينهش قلبه كفأر جائع، والندم يسكن روحه ويوقظه كل ليلة، مع رغبة في الانتقام لا تفارقه، كأنما يسعى للقصاص من نفسه قبل غيره. هو لم يخسر صديقا فحسب، بل خسر الجزء الأصدق من ذاته. حينها قطع عهدًا على نفسه بأنّه سيحمي كلَّ ما يخصُّ صديقَ عمره، وأنّه سيُفني حياته لأجل ذلك.

بقي في بلدة سيلوز رغم رغبته العارمة في مغادرتها والفرار بعيدًا عنها.

قرّر البقاء في بلدة سيلوز للحفاظ على أملاك (سديم) في شركة (سالار)، وفي مصنع القطن الذي أصبح من حق (سحاب) بعد موته؛ لأن تلك كانت غايته منذ أن عاد إلى سيلوز، فدفن نفسه في العمل بشكل مكثف أكثر من ذي قبل؛ ليعرف كلّ ما يخصّ الشركة: من المستثمرين، والأسهم، والشركاء أيضًا، وحاول بشتّى الطرق أن يكون سبب إفلاس العم (سامين) بعد أن استعاد مكانته في الشركة، وهذا ما دفعه للبقاء في سيلوز.

لكنّ شيئًا غريبًا حدث فأشعر الجميع بقلقٍ مُبهَم، بدأ الأمر بغمغماتٍ متقطعة، ثم تحوّل إلى همساتٍ مكتومة، حتى انفجر الخبر كالصاعقة: لقد عثروا على جثة حصانٍ ميت عند ضفة النهر!

اجتمع الأهالي مسرعين، تثّقذ أعينهم فضولًا ورعبًا. هناك، بين الحشائش المبتلة، كانت جثة الحصان (ماڤي) منتفخةً بفعل المياه، أشبه بظلّ شاحب لِمَا كان عليه ذات يوم، لكنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، فعند مدخل الجسر القريب، كانت بقع دمٍ داكنة وقطعٌ مرمية من ثيابٍ لسيدة.. صاح أحدهم، بينما وقف الآخرون صامتين، كأنّ الوجوم قد خيّم عليهم جميعًا:

- ما هذا؟! لمن هذه الملابس؟!

ثم فجأة... ظهرت (سوما)، كانت خطواتها متثاقلة، وعيناها تحملان صدمةً لا تُوصف. نظرت إلى الأقمشة المبعثرة، ثم ارتعش صوتها وهي تقول:

- هذه... هذه ثياب (سحاب)... لقد رأيتها ترتديها فيما مضى!

صمتٌ ثقيل، ثم انفجر السؤال الذي كان يدور في أذهان الجميع:

- هل يعني ذلك أنها غرقت أيضًا؟!

أجاب أحد الحاضرين بقلق:

- إذا كانت قد غرقت، فأين جثتها؟

فقال آخر:

ART_OF_BOOK

- لا أظنُّ أنّها نَجَت، من المستحيل أن تنجو من ذلك الغضب المائي، لا بُدّ أنّها جُرفت... لا أحد يصمد في وجه النهر حين يثور.

لكنَّ سوما لم تُرُدّ. كانت عيناها تغرقان بألم الفقد، بينما ارتسمت على شفتيها كلماتٌ لم تُنطَق... كلماتٌ لا يمكنها تغيير شيء.

الفصل الرابع والعشرون

عندما سمع (سراج) ذلك الخبر شعر بالقهر والحزن يحيطانه، فذهب مسرعا بغضبه إلى منزل (سامين)، وراح يصرخ عند بابه بأعلى صوته:

- أين أنت، أيها الرذيل؟!

حينها خرج أحد الجيران وأخبره بأن لا وجود لأحد في المنزل، فسأله (سراج) عن مكان تواجد (سامين)، فأجابه الجار قائلًا:

- لديه منزل آخر في الهضبة، فلا بُدّ أنّه ذهب إليه.

فركض (سراج) بسرعة نحو الهضبة. كان يسير رغم ثقل خطاه، وكأنه ينتعل حجرًا - لا نعلًا؛ لأنّه كان يدرك حقيقة ذلك المنزل.

استطاع (سراج) الوصول بصعوبة كبيرة واستجمع قواه وراح يطرق الباب بقوة تكاد تكسره، ولو لم يبادر العم (سامين) بفتحه، لخلعته تلك الطرقات. فتح (سامين) الباب متذمرًا، وقال:

- ما الذي تريده؟

ومن دون سابق إنذار التصق (سراج) بياقته، قائلًا:

- أين (سحاب)؟

أجابه (سامين) ببرود يرتعش منه الحجر:

- ومن أين لي أن أعلم؟

صرخ (سراج) في وجهه قائلًا:

- تدّعي الشرف طوال ذلك الوقت ولا تعرف أين ابنة أخيك، أيها الرذيل؟!

قال العم (سامين) وهو يرفع أحد حاجبيه بازدراء:

- ولكن ليس بقدرك، فالرذيلة من صنعك، أتذكر؟

قال العم (سامين) جملته تلك ليذكّرَ (سراج) باليوم الذي أفشى فيه سرّ صديقه، فابتلع (سراج) ريقه محاولًا تجميع قواه، ثم راح يشد على عنقه وهو يقول:

- ها قد أتيت لأتخلّص من وصمة العار التي حصلت عليها بسببك، أيها الشيطان القذر.

قال (سامين) وهو يعتصر تحت قبضة (سراج):

- لقد أُصيب الشيطان بالذهول حينما رأى فعلتك، لربما أكون شيطانًا ولكني لستُ خائنًا.

تجاهل (سراج) حديثه وكرر سؤاله:

- أنت تعرف مكانها، تحدث، أين هي؟!

تمتم (سامين) متلعثمًا بصوت متقطع إثر الاختناق الذي يتعرض له:

- لا أعرف عنها شيئًا منذ أيام.

صاح (سراج) بغضب:

- أيها الرذيل! ماذا فعلت بالفتاة لتذهب إلى ذلك النهر ... تحدّث؟!

ثمَّ قام بالشدّ بكلتا يديه حتى احمرَّ وجه (سامين) وكاد أن ينفجر، وأنفاسه باتت تنقطع، ثم جمع قواه وركل (سراج) على ساقه فجعله يفقد توازنه ويفلت يديه من على عنقه، فاستغلَّ (سامين) الفرصة ونطحه على رأسه، فسالت الدماء من أنف سراج وأصيب بالصداع، وابتعد قليلًا واضعًا يده على أنفه المليء بالدماء، وهو يقول:

- أيها السافل، لن تنجو مني، سأقتصُّ منك حقَّ أولئك المساكين!

ابتعدَ العم (سامين) وهو يتمتم بشتائم ليشتّتَ تركيزه، ثمَّ اتَّجه إلى منضدة في إحدى زوايا المنزل، ففتح أحد الأدراج بسرعة واستلَّ منها خنجره وخبَّأه وراءه، وهو يقول مبتسمًا:

- لقد جربه صديقك من قبل، وأنت خيرُ مَن يعرف نتيجة ما حصل، ولن أذكر لك التفاصيل حفاظًا على مشاعرك.

ثارت مشاعر الحزن في قلب (سراج)، لكنّ ذلك لم يضعف قواه، بل زاده قوة، وراح يجري بسرعة ولكمه في وجهه وبدأ يضرب رأسه على حافة المنضدة، وهو يصرخ:

- اليوم ستلقى حتفك، ولكن بذات التفاصيل التي تدّعي أنّك لن تذكرها حفاظًا على مشاعري... لقد رأيت كل شيء!

ثم سحبه إلى الخارج، إلى ذات الشرفة التي قُتل فيها صديقه، قال العم (سامين) بخوف محاولًا إنقاذ نفسه:

- ليست من شيم الشجعان أن يقتلوا خصومهم دون منحهم فرصة للدفاع عن أنفسهم.

تبسّم (سراج) وقال:

- لا تقلق، سأمنحك تلك الفرصة.

ثم ابتعد عنه أمتارًا قليلة حيث كان قريبًا جدًا من السياج الحديدية التي تحيط بالشرفة، ثم قال:

- هيًا، أرني كيف ستدافع عن نفسك؟ كيف ستتخلص من شخص ليس لديه ما يعيش من أجله سوى أن يراك ميتًا؟

انتفض العم (سامين) والتقط أنفاسه بصعوبة وهو يمسح الدماء التي تسيل من فمه ورأسه، وراح يهرول نحو (سراج) ولكمه في رأسه ليطرحه أرضًا. أمسك (سراج) رأسه بصعوبة، وهو يقول بتهكُّم:

- مخادعٌ، ورذيلٌ، وقاتل، لا تكفي شتائم الأبجدية لوصفك، أيها السافل.

تجاهل العم (سامين) كلامَه وسار نحوه بخبث حتى أصبح قريبًا منه، وقال:

- هل علمتَ عنها شيئا؟ إلى أين ذهبت؟

كان سؤاله غريبًا على (سراج)، فطال الصمت حتى أردف (سامين) مُبرزًا:

- نرتدي قناع الشر أحيانًا، لكن شيئًا في داخلنا يظل يهمس بالرحمة.

رأى (سراج) الحزن في عينيه ومن خلال نبرة صوته، لكنه تجاهل ذلك، وقال:

- لا تنتظر منّي أن أصدق أنك تحزن لأجلها.

ثم قام (سراج) بلَكْمِ (سامين) حتى سقط بعيدًا عنه، ولكنه استجمع قواه سريعًا وقام وأخرج خنجرًا وبدأ يقترب من (سراج)، قائلًا:

- لا يمنعني شيء من أن أغرز هذا الخنجر في جسدك، أيضًا، ولكني أحزن عليه، فدائمًا ما يكون في محض الإجبار ويقتل الأغبياء فقط، وأنت لا تقل غباءً عن صديقك.

وبدأ يتلاعب بالخنجر أمام وجهه قائلًا:

- أترى هذا الخنجر؟ به قتلتُ (سديم)... أتظنُّ أنّك أقوى منّي؟ لن يتحقق هذا حتى في أحلامك، فأنا دائمًا الأقوى.

راح (سراج) يُحدِّق فيه حتى اتَّسعت حدقة عينيه، وبمباغتةٍ سريعةٍ كبَّل يديه خلف ظهره وأمسك بهما بشدة، مما جعل (سامين) يندهش من سرعته، التقط (سراج) الخنجر من يده، وقال وهو يضحك بسخرية من خلفه:

- من المؤلم أن يُقتل الإنسان بسلاحه، يا (سامين)، أليس كذلك؟!

وأخذ يتلاعب بالخنجر أمام (سامين) الذي بدا الوجل على وجهه وراح يتصبَّبُ عرقًا، وقال وهو يبتلع ريقه:

- من الجبن أن تطعنّي في ظهري.

ثم راح يتذكر أفعاله وكيف كان يقتل ضحاياه بطريقة جبانة. ثم أخرج

(سراج) ضحكة قصيرة، وقال:

- هل أنت من يتحدث عن الجبن وهو من أكبر خصالك؟

أفلت (سراج) يد خصمه واستدار حتى أصبح أمامه، ونظر إليه بحقد وانتقام، وهو يلتصق بجسده، ثم قال بصوت تملؤه الرهبة وقلبه ينبض بشدة مما جعل يديه ترجف:

- لستُ جبانًا؛ لذلك سأقتلك وأنا أنظر إلى عينيك.

قال جملته وغرز الخنجر في عمق صدره، وبدأت دماء (سامين) تسيل على يديه، فقال وهو ينظر إلى غرغرة (سامين):

- مُت... مُت، أيها القاتل، جعلتني قاتلًا مثلك... لكني قاتلٌ لأجلك يا (سديم)، لقد التصقت بي ألقابٌ كثيرة: الأسود، القبيح، ابن الشوارع والخائن وكلها جاءت دون إذني، لكنَّ اللقب الخامس وهو القاتل، وقد حصلت عليه بكامل إرادتي، ولم يجبرني أحد بل أنا من اختاره وذلك لأجلك يا (سديم).

ثم أخرج الخنجر من صدره، وبدأ بطعنه أكثر من مَرّة، وما إن تأكّد من موته حتى رمى جثته من تلك الشرفة التي تشبه الهاوية، ثم تنهّد بعمق وهو يرفع رأسه نحو السماء وكأنّه يرى صديقه أمامه ويخاطبه:

- لا تقلق، سأبحث عنها، أنا متأكد من أنّها لم تَمُت.

الفصل الخامس والعشرون

كان ضوء الشمس الخافت يتسلل عبر نوافذ مكتب البريد العتيق، حيث وقف (غيم) أمام المنضدة الخشبية المُتهالكة، ينتظر بفارغ الصبر. رائحة الأوراق القديمة والغبار علقت في الهواء، بينما كان موظف البريد يُقلّب بسخطٍ بين أكوام الخطابات. فقال وهو يرمي نظارته على جبينه، محدّقًا في (غيم) بتعب.

- مَرَّة أخرى... ليس هناك شيءٌ باسمك! لماذا لا تخبر هذا الفتاة، أيًا كان اسمها... أن تكتب عنوانك كاملًا؟ البريد ليس مكانًا للبحث عن رسائل مجهولة!

سكت (غيم) لبرهة، وعيناه تنظران إلى الأرض وكأنّه يحفر في ذاكرته ويفكّر في السبب الذي أوصله إلى هنا، فهو لا يستطيع أن يعطي عنوانه لـ(سحاب)... لأنّه لا يريدها أن تعرف مكانه. فهمس أخيرًا، محاولًا تفادي نظرات الموظف المتشككة.

- أنا... لا أملك عنوانًا ثابتًا.

وفجأة سمع صوتًا خلفه، اخترق صدره:

- ما زلت تحبها، أليس كذلك؟

التفت ببطء... ليجد (سراج) واقفًا هناك، يبتسم تلك الابتسامة الغامضة. قال (غيم) متلعثمًا:

- (سراج)! ما الذي جاء بك...؟

قال (سراج) وهو يتّكئ على عمود خشبي:

- أنا آتي كلَّ يوم إلى هنا منذ أسبوع.. كنت أعلم أنّك ستظهر عاجلًا أم آجلًا... تبحث عن رسائلها.

لم يجب (غيم) كأنَّ الهواء بينهما مشحونٌ بكلِّ ما لم يُقَل. ثمَّ كسر

(سراج) الصمت بنبرةٍ أكثر جدية:

(سحاب)... لقد غادرت البلدة وهي تحمل ابنك في أحشائها.

قال (غيم) وكأنّ صاعقةً ضربت قلبه:

- ماذا؟! إلى أين غادرت.

***

جلس (غيم) و(سراج) معًا في مكان بعيد يتشاركان عبء الأسرار التي غيّرت حياتهما نحو الأسوأ ليصبحا شركاء القدر والأسرار أيضًا، ولكن ما إن عرف (غيم) بخيانة (سراج) لـ(سديم) حتى غضب غضبًا شديدًا حتى بدا كبركان على وشك الانفجار، وبالمقابل لم يبرر (سراج) فعلته؛ لأنّه يعرف بشاعتها جيدًا.

لكن في النهاية، اتّفقا على البحث عن (سحاب) دون التطرّق إلى الماضي؛ لأنّ هدفهما الآن واحد وهو إيجاد (سحاب). قال (غيم) بتشاؤم وقد أمطرت عيناه دموعًا وهو يتلعثم بغصّاته:

- ربما قد تكون ماتت غرقًا في ذلك النهر.

أجابه (سراج) وهو يهمُّ بالوقوف:

- لا أظن ذلك فنحن لم نجد أثرها.

- ولكن هذا ليس دليلًا ملموسًا.

- بل ملموس، فنحن نتحدث عن نهر وليس بحرًا، فلا بُدَّ من وجود جثة.

أشاح (غيم) بوجهه وهو يغمض عينيه محاولًا بذلك استيعاب الحقيقة التي سمعها، عندما قال (سراج) كلمة "جثة"، لكنه لم ينطق بشيء فاستأنف (سراج) حديثه قائلًا:

- هذا النهر لا يوجد به سوى الأسماك، فمن المستحيل أن تلتهم جثّتها، لا بُدَّ من أن تطفو على سطح الماء، ولكن ربما لم تطفُ جثتها على ضفة نهر

سيلوز.

نظر إليه (غيم) بحزن وكأنّه فهم ما يريد قوله، ثم قال:

- هل تقصد...

قبل أن يكمل جملته، قاطعه (سراج) مجيبًا:

- نعم، إن كانت حقًّا غرقت، فلا بُدّ أن تكون جثتها وصلت لإحدى ضفاف المدن المجاورة.

نظر نحو (غيم) الذي تهدّلت كتفاه وبات يعانق نفسه بيديه كطفل صغير. تألم (سراج) لرؤيته بتلك الحالة، فحاول أن يبثّ الأمل فيه قائلًا:

- لكنّ ذلك لا يعني أنّها حقًّا غرقت، ربما استطاعت الخروج.

أجابه (غيم) وقد هربت دمعة من عينيه لم يحاول إخفاءها:

- إنّها لا تجيد السباحة.

- هل أنت متأكد؟

- لقد أخبرتني بأنّها ترغب في رؤية البحر لأنّها كانت تعتقد أنّها قد تتمكّن من تعلُّم السباحة على شواطئ البحر الهادئة أفضل من محاولة التعلّم في مياه النهر الجارية. كان قد وعدها أبوها أن يأخذها إلى هناك، ولكنّه توفي قبل ذلك.

ثم راح ينظر بأسى إلى يديه، قائلًا:

- هل تعلم أنّي بتلك اليدين مسحت دموعها، وقطعت وعدًا بأنّي سآخذها عندما ننتقل للعيش في مدينة سوريانا؟ أخبرتني حينها بخجل بأنّها لا تجيد السباحة، وقطعت وعدًا آخر بأني سأعلمها السباحة... لكنّني اليوم أرى أنّي لم أوفِ بأيٍّ من الوعود التي قطعتها، تركتها وحيدة في هذه الحياة... ولم أحمِها.

ثم قال بصوت خافت يخاطب نفسه: ما الذي حلَّ بالقمر ليغيب؟!

ثم تنهد ووضع يديه على رأسه، قائلًا:

- أشعر بالعار يا (سراج)... لقد خنت عهدي لها! أنا جبان فقد استسلمت للماضي.

- جميعنا جبناء بطريقة ما، نمارس الجبن أمام رغباتنا ومخاوفنا. أما الخيانة فلا تقل بشاعة عن الجبن، بل هي جريمة نرتكبها حينما نخضع لغرائزنا، فتنغرس بنا كوصمة عارٍ لا تُمحى من جبين أرواحنا.

نظر (غيم) نحو (سراج)، وقد أدرك بأنّه يقصد نفسه حينما عبر بتلك الكلمات، لكنّه كان غارقًا في همّه إلى حدٍّ لم يترك له مُتسعًا لمواساته. ثم قال والخيبة تعتريه:

- هل تكون ماتت...؟

قال (سراج) محاولًا أنْ يهوّنَ عليه:

- ربما أنقذها أحدهم، لماذا تفكر في هذا الجانب فقط؟

ثم تنهد وأكمل حديثة وكأنه استسلم للواقع المرير، وبصوت هادئ أقرب للحزن قال:

- إن حدثَ ما تقول، إذن يجب علينا التأكد، لنقوم بواجبنا تُجاه روحها.

انقبض قلب (غيم) خوفًا من أن يكون هذا ما حدث، وقال مُتصنّعًا الثقة:

- إن كان هناك بصيص أملٍ ولو كان صغيرًا، فسأركض خلفه!

ثم قال وهو يستعيد طاقته:

- سأبحث عنها نهرًا، وبرًا، وفي كل المدن المجاورة والعالم بأسره إذا استلزم الأمر، لن أخضع لجبني بعد الآن.

أجابه (سراج) باسمًا:

- نعم، لا وقت لليأس والاستسلام، يجب أن نبحث عنها.

زفر (غيم)، وقد عاد إليه اليأس مَرّة أخرى ليغير ملامحه، قائلًا:

- ماذا نفعل؟ أشعر بالضياع كما لم أشعر به من قبل.

- لا تقلق، لدي خطة.

***

أخرج (سراج) خريطة كبيرة ونشرها على الأرض، كانت ملينة بالتفاصيل الدقيقة؛ فسأله (غيم) مندهشًا:

- من أين جئت بهذه الخريطة؟!

- من مكتب البريد نفسه!

ابتسم (سراج) ثم أكمل:

- كانت معلقةً على الحائط... لا أظن أنهم سيفتقدونها!

نظر (غيم) إلى الخطوط المتشابكة على الورقة، وكأنها شبكةٌ من المصائر، وقال منكسرًا:

- سأحتاج إلى مئة عام للبحث عنها في كل مكان هنا.

أجاب (سراج) بنبرة تحمل معها الأمل:

ماذا لو وجدتها في أول مكان تبحث عنه؟

- لن أتركها بالطبع، لكن ماذا عن عمها (سامين)، هل أرسل من يبحث عنها؟

تغيرت ملامح (سراج) قليلًا، ثم قال مُجيبًا:

- إن كان في الجنة الآن فسيعلم مكانها، لكنّني لا أظنه هناك.

***

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

الجزء الرابع

ART_OF_BOOK

بعد 5 سنوات

الفصل السادس والعشرون

مضت خمس سنوات على مغادرة (سحاب) لمدينة سيلوز الهادئة التي كانت تُشبه حكاية قديمة نُسجت بخيوط من الصمت والألم. كانت حقولها الواسعة هناك تحمل بين نباتاتها ذكريات مؤلمة، كوشمٍ حفرته الأيام على جلد روحها، وشم لا يُمحى ولا يبهت.

كلُّ دربٍ، كلُّ منزلٍ صغيرٍ، كلُّ شبّاكٍ مُشرَعٍ، كان يهمس لها بأسماء وأوقات لن تعود. لكنَّ الحياة بتقلُّباتها التي لا ترحم دفعتها بعيدًا عن ذلك الكيان الذي أَلِفَته، لترمي بها عند عتبات مدينة سكاي الصاخبة، التي تنبض بالضوضاء كقلبٍ عملاق لا يعرف الراحة.

كانت سكاي تختلف عن سيلوز كما يختلف النور عن الظل. الأضواء المبهرة هنا لم تكن تُضيء شوارعها فحسب، بل كانت تحرق أعين الغرباء الذين يبحثون عن ملاذ. ضحكات المارّة، وصراخ الباعة المتجولين، تشكلت في أُذُنَي (سحاب) كسمفونية غريبة، مزّقت صمتها الذي اعتادت عليه. حتى الهواء كان ثقيلًا بروائح الأطعمة والأبخرة،

لا يُشبه هواء سيلوز العليل الذي كان يحمل عبير الزهور وأغاني الطيور في الصباح.

وسط هذا الضجيج، وقفت (سحاب) تحمل في عينيها بحرًا من الأسئلة التي لا إجابة لها. كانت تشعر بأنَّ خطواتها الثقيلة تتردّد صداها في أروقة قلبها الفارغ، حيث لا يزال الحزن يعشش فيه كطائر جريح، يحاول النهوض بين الحين والآخر لكنَّ جناحيه المكسورين دائمًا ما يعيدانه إلى الأرض.

لكن الأقدار، التي لا تترك أحدًا وحيدًا تمامًا، منحتها لقاء (سيلاي)، تلك الفتاة ذات الضحكةِ التي تملأ المكان. كانت دائمًا تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تُزيل السحب الرمادية التي تحوم فوق رأس صديقتها. بكلماتها

الدافئة التي تذوب كالعسل على اللسان، وبنكاتها السريعة التي كانت تفجر الضحك في أصعب اللحظات، حاولت بكلّ جهدها أن تعيد لـ(سحاب) شيئًا من بريقها المفقود.

مرت الأيام، وزاد شعور سحاب بأنها عبء على هذا المنزل وأنها عالة مستهلكة، هي وابنها الذي كبر بسرعة. هذا الشعور بالعبء كان ثقيلًا كالجبل على كتفيها الهزيلتين. وفي يوم من الأيام، بينما كانت تقف أمام نافذة غرفتها الصغيرة، تشاهد قطرات المطر تتساقط على زجاج النافذة، قررت أن تُغير مصيرها. لم تعُد تريد أن تكون سجينة الماضي، أو أن تظل عالقة في شباك الحزن التي نسجتها حول نفسها. حان الوقت لتبدأ رحلة جديدة، رحلة تبحث فيها عن بقايا نفسها المبعثرة بين أنقاض الذكريات. أكثر الطرق التي يسلكها الإنسان شقاءً، هو الطريق إلى ذاته؛ فهو من أطول المسارات، وغالبًا ما ينتهي الكثيرون بالموت قبل أن يجدوا سبيل الوصول إلى ذواتهم.

بدأت الأيام تمر، ومع كل شروق للشمس، كانت (سحاب) تكتشف في داخلها عوالم لم تكن تعرفها من قبل. ففي أوّل مرة وقعت بين يديها علبة صغيرة بداخلها خيوط حرير ملونة وإبرة دقيقة. شعرت بشيء يدفعها إلى تجربتها. جلست على كرسيها القديم، وأخذت تُجرب الغرزة الأولى بحذر، كطفلة تتعلم المشي.

وللمفاجأة، تحولت تلك الخيوط تحت أناملها إلى زهرةٍ منسوجة جميلة على قطعة قماش بيضاء، كقطعة من قلبها وضعتها هناك. كانت اللحظة التي رأت فيها ما صنعته كشفقةٍ من النور في نفقها المظلم، فأصبحت الحياكة منذ ذلك اليوم ملاذها الآمن، ولغتها السرية للتعبير عما لا تستطيع قوله بالكلمات.

لم تكن تعلم أنّ تلك الهواية البسيطة ستصبح شريان حياة لها. بدأت تصنع أوشحةً تزينها برسوماتٍ مستوحاة من ذاكرتها، بعضها يحمل أشكال أزهار سيلوز التي لا تنسى، وبعضها يُجسد طيورًا تحلق في سماء مفتوحة، كتلك التي كانت تحلم بالانتماء إليها. وببطء، بدأت نساء الحي يلاحظن

جمال صناعتها، فيأتين لشراء قطعها التي أصبحت تعرف بدقتها وأناقتها.

***

بينما كانت (سيلاي) تجلس مع صديقتها الصدوقة (سحاب) وهي تنجز عملًا صغيرًا من مشروعها، كانت (سيلاي) مفعمةً بالأفكار الطموحة، فالتفتت إلى (سحاب) بعينين متقدتين بالحماس وقالت:

- ألم تشعري بتعب أصابعك من وخز الإبر، وحياكة الحرير والصوف كلّ يوم؟

قالت (سحاب) وهي تحيك وتغرز الإبرة بتركيز شديد لتسلم الشال الصوفي في موعده لعمليتها:

- لا يهم ما أشعر به بقدر النتيجة، فليس لدي حلٌ آخر.. يجب علَيّ العمل، لا أريد أن أكون عالة عليك، وكما ترين، (مطر) يكبر وقد أوشك على الخامسة من عمره، واحتياجاته تكثر مع مرور الأيام، والسنة القادمة يجب أن يدخل المدرسة.. يجب أن أعمل أكثر من ذي قبل.

قالت (سيلاي):

- ما رأيك أن يكون لديك عمل خاص بك؟

- عمل ماذا؟

- أعني أن نقوم بافتتاح متجر، ونعرض به البضاعة التي تصنعينها، فتزداد المبيعات بشكل أكبر من الطلبات التي تتلقينها من نساء الحي؟

قالت (سحاب):

فكرة جيدة، ولكن كيف؟

ردَّت (سيلاي) بغرور واعتزاز:

- فكرة جيدة بالطبع؛ لأنَّها خرجت من عقلي الجميل.. آهٍ، كم أود تقبيله الآن.

ثم أكملت حديثها:

- إنني في حيرة من أمري، كيف أشكر الله على تزاحم النعم تلك، أبدأ بالجمال أم الذكاء؟!

قال (سحاب) بعد ابتسامة خفيفة:

- إذا انتهيتِ من مدح تلك الجميلة الذكية، فهل تقولين الآن كيف سنقوم بذلك؟

- اتركي الأمر لي.

فكرة توسيع دائرة العمل كانت مغريةً لـ(سحاب)، لكنها لم تكن مستعدةً لأن يتبعها أحدٌ من ماضيها. المزيد من الأعمال يعني المزيد من المعارف، وهذا بالضبط ما لم تكن تريده. التفتت إلى (سيلاي)، صديقتها المفرطة في الثقة وقالت لها عازمة على ما تود فعله:

- (سيلاي)... أريد تغيير اسمي.

رفعت (سيلاي) حاجبها بفضول:

- ماذا سيصبح؟!

- أي شيء... إلا (سحاب)، لا أريد أن يتبعني أحد من خلال اسمي.

لم تتردد (سيلاي) حتى للحظة، ابتسمت بثقة مطلقة، وكأنها تخطط لهذا منذ زمن:

- اتركي هذا الأمر لي، من الآن فصاعدًا، أنتِ (سحاب) فقط بيني وبينك وبين مطر، أمَّا الباقون.. فسيعرفونكِ باسم آخر.

وبالفعل، كانت (سيلاي) جدية في قولها. مع الأيام نشرت بين الزبائن والموزّدين اسمًا جديدًا، وثّقت الاسم الجديد في كلّ مكان، حتى في الأوراق الرسمية، وأصبحت هويتها سرًّا بينها وبين صديقتها وابنها.

***

مع مرور تلك الأيام، استطاعتا فتح ذلك المتجر وحققتا من خلاله كسب المزيد من الزبائن، والربح كان فوق تصورهما. قالت (سيلاي) وهي تعد النقود موجهة الكلام لـ(سحاب):

- هل أصبحنا أغنياء الآن؟

ردّت (سحاب) دون النظر إليها:

- نعم، يوجد لدينا الكثير من المال.. خذي ما شئتِ منه.

- سأشتري كلّ الكتب التي أحبها!

ردت (سحاب) بنبرة ممزوجة بالدهشة والعتاب، وهي ترمي الكلمات بنصف ابتسامة:

- تسرفين كل أموالك على الكتب؟! قومي بقراءة الكتب المكدسة في الداخل أولًا!

ضحكت (سيلاي) بخفة، ثم قالت بثقة:

- الكتب هي الشيء الوحيد الذي أنفق عليه أموالي دون تأنيب ضمير.

ثم صمتت لحظة، وابتسمت كمن يستعيد ذكرى جميلة، ثم تنهدت وقالت:

- الكتب في حياة الإنسان... كغيمة ماطرة في صيف قائظ.

كانت (سحاب) تتمعّن في كلمات سيلاي الصادقة، في اللحظة التي غيرت بها (سيلاي) الموضوع فجأة قائلة:

- لماذا لا نوسع المتجر لنكسب المزيد من المال، مثلًا نصنع القماش أيضًا.

ما إن فهمت (سحاب) مرادها، حتى ردت غير موافقة على اقتراحها:

- (سيلاي)، ما الذي تقولين؟ لا تفكري أبدًا في ذلك.

- إذا استطعنا أن نؤمن القطن، ومن ثَمَّ نأخذه إلى المصانع، ليصنعوا

منه أقمشة، سنكون قد وفّرنا الكثير من المال الذي ندفعه لمتاجر القماش، بالإضافة إلى الكثير من المزايا التي سنوفرها لزبائننا، وأيضا العلاقات مع الشركات الأخرى، ربما نستطيع أن نشتري مصنعًا لصناعة القماش، وسنأخذ القطن من حقولكم، فأنتم لديكم مصنع وشركة أيضًا..

ثم صفقت بيديها كالأطفال:

- سنصبح أغنياء، يا صديقتي.

لم تتفاعل معها (سحاب)، ولم تتوقف (سيلاي) عن التحدث فقالت:

- ونجلب خياطين لنوسع عملنا بدلًا من الاعتماد فقط على الحياكة. لا تقلقي... هل تدركين مدى النجاح الذي سنحققه؟!

قالت (سحاب) محتجة:

- ومدركة أيضًا أني لا أريد شيئًا من تلك البلدة، ولا من بقايا ذلك الرجل.

- ولكنَّهُ حقك، ولا تنسي أنَّ ذلك حلمك أنت وأخيك، وأيضا حق ذلك الصغير.

قالت (سحاب) بنبرة حادَّة وقد ارتفع صوتها:

- حقي لا أريده، وذلك الصغير ليس بحاجة إلى شيء، أنا سأعمل وأوفر له جميع ما يريد.

- ولكنه كما ترين بدأ يفهم، ويكبر، ويدرك حقيقة حياتكم. وبعد دخوله للمدرسة، سيقوم بسؤالك عنه أكثر من ذي قبل؛ حينما يرى جميع الأطفال لديهم آباء، سيشعر بالنقص.

صرخت (سحاب) بحرقة:

- أنا أمُه وأبوه وكل شيء.

ردت (سيلاي) بعد أن خفَّفت من نبرة صوتها:

- أعلم، ولكن ماذا عن رأيه؟ إلى متى ستهربين من سؤاله؟!

نهضت (سحاب) متوجهة نحو النافذة وبتوتر ردت قائلة:

- لا أعلم ... لا أعلم ... اتركيني وشأني.

نهضت (سيلاي) ومشت وراءها مستفسرة:

- ألا تستطيعين أن تسامحيه؟ ألم تشتاقي إليه؟

قالت (سحاب)، وهي تحنو رأسها بخيبة:

- هذا ما يقلقني، أخشى أن يصفح قلبي عمّا فعله بي، وأن يغلبني الشوق له، هل تظنين أنّ تلك السنوات باستطاعتها أن تمزقه من قلبي؟ أنت لا تعلمين كم يكلفني البقاء صامدة، رغم الغليان الذي يحدث في صدري.

***

في تلك اللحظة، دخل (مطر) الصغير مسرعًا، وهرول نحو أمه بحماس الطفل البريء. انحنت (سحاب) لاحتضانه، لكنّها تأوّهت فجأةً من ألمٍ خاطف في بطنها. لم يفت ذلك على (سيلاي)، التي أسرعت لتبعد (مطر) عنها بلطف، قائلةً:

- ابتعد قليلًا يا حبيبي، أمكِ تتألم.

ثم التفتت إلى (سحاب) بقلق:

- أعاد الألم مَرّة أخرى؟

هزت (سحاب) رأسها محاولةً التهوين:

- لا، لا تقلقي... إنه مجرد ألم عابر.

لكن (سيلاي) لم تقتنع، فقد تذكّرت أنّ (سحاب) تشكو من ذات الأعراض منذ أشهر..

- هذا ليس طبيعيًا، يجب أن تذهبي إلى الطبيب!

ART_OF_BOOK

لكن (سحاب) أدارث وجهها، وقالت وكأنّها تبحث عن مهربٍ آخر:

- ألم الأرواح أشدّ... كوبٌ من المشروب الدافئ سيكفيني.

أدركت (سيلاي) أنها لن تقنعها الآن، فتنهدت وقالت:

- حسنًا، سآخذ (مطر) للعب في الحديقة.

ثم أضافت:

- لا تتهربي من الأمر باستخدام عباراتك المؤثرة، وكأنّها ستحل المشكلة. سنذهب إلى المستشفى، مهما حاولتِ الهرب.

الفصل السابع والعشرون

أعوام مرّت على (غيم) دون أن يفي بوعده، وتغير خلالها كثير من ملامحه إلّا أنّه لم يغير هدفه قطّ، واستمرّ - رغم كلّ ذلك الزمن الذي مرّ- فى السؤال عن أي معلومات عن (سحاب).

في الليل وكما كل الليالي، رأى (سحاب) في منامه، كان قادمًا إليها زحفًا يبتغي رضاها، ولكنّها كانت ذابلة ودامعة ولم تتقبل حتى عودته، وراحت تعاتبه:

- لماذا هجرتني؟ عندما أتيت إليّ أول مرة، اختلّ توازن حياتي، وقلبي بات ينبض من أجلك، شعرتُ وكأنّي أنتمي إليك بشكل مخيف، لقد أرهقت لكي أتعافى منك لأنّك لم تكن سوى مرضٍ أصابني! أتعلم أنني لجأت لعلم النفس لعلّ العلم يستطيع مساعدتي؛ لأتخلص من ذكرياتك الموجعة؟ والآن تعود بعد أن سلكتُ طريقًا طويلًا لنسيانك. لماذا تعرقل طريقي بعد أن أوشكت على الوصول؟

- ليس بقدر الطريق الذي قطعته لإيجادك.

بدأت يداها ترتجف، تضمُّهما تارةً ثم تفتحهما، وتشُدُّ قبضتها كأنّها تحاول الإمساك بشيء غير مرئي. كان التوتر يبدو عليها ولكنّها تحاول الصمود.

كان (غيم) يعرفها جيّدًا... بجميع تفاصيلها ويعلم أنه ما زال يمتلك الفرص، فتقدّم خطوة وقال لها بهدوء:

- أعلم أنّكِ لم تنسي بعد.

- خسرتَني وانتهى الأمر، يا (غيم).

صمتت لثوانٍ، ثم أكملت كلامها بكبرياء:

- من سوء حظك أن تخسر قلب امرأة مثلي.

ثم مشت بخطوات ثابته وقالت:

- استودعتك الله...

- هل تعنيها؟

- أعنيها، لكن ليس كما كنت تقولها أنت، أتمنى أن تكون بخير، وأن تبقى في ودائع الله... ولكن دون أن يكون لنا لقاء آخر.

استيقظ (غيم) صباحًا مغمومًا من ذلك الحلم، كانت جميع الأحلام التي يرى فيها (سحاب) تنتهي بشكل كابوسي، لا شيء مُطمئنٌ في الحلم إلّا أنّه يرى (سحاب)، فتعوذ من الشيطان وخرج ليجلس في الحديقة ليتنفس هواء نقيًا وهو ينظر ناحية المكان الذي كانت تطلُّ منه (سحاب).

بعد وقت قصير جاء إليه (سراج) حيث يجلس في مكانه المعتاد كل يوم، أمام نافذة (سحاب)... رآه حاملًا بيديه شالها الذي وجده عالقًا بين الأشواك النابتة على ضفاف نهر سبل منذ سنين، منكسرًا جالسًا على الأرض في مكانه المعتاد يراقب النافذة بصمت يفسر حزنة وخيبته.

جلس (سراج) بجواره بهدوء وقال:

- ألا تشعر بالضجر وأنت تنظر إلى تلك النافذة؟

لم يجبه (غيم)، بل بقى شاردًا وهو ينظر إليها وكأنه ينتظر خروج أحد ما. تنحنح (سراج) محاولًا لفت انتباهه، ثمَّ مدَّ يده إلى جيبه وأخرج الخريطة الكبيرة شبه المهترئة ومتآكلةُ الأطراف، ووضعها أمام (غيم). وقبل أن يتفوَّه (سراج) بأي كلمة، قال (غيم) متمتمًا:

- لسنا بحاجة إليها، لقد حفظتها منذ زمن، ولقد تغيرت المدن كليًا.

- لكن المستشفيات ومراكز التأهيل ودور الرعاية في مكانها.

نظر إليه (غيم) نظرة استخفاف وقال:

- نحن نبحث عنها هناك في كلِّ عام، ما الجديد؟

قال (سراج) بنبرة منكسرة:

ART_OF_BOOK

- هل انهزمت يا (غيم)؟ هل ستتخلى عنها؟

عدل (غيم) من جلسته وبدل نبرة صوته قائلا:

- لا، ولكن يجب أن أبحث في دائرة أوسع من هذه المناطق.

- هل سترحل إلى مدينة أخرى؟

- نعم.

ART_OF_BOOK

الفصل الثامن والعشرون

وقَفَ (سراج) عند قسم الاستقبال والمغادرة في المستشفى، كان يراقب بتركيزٍ فتاتين أمامه، إحداهما بشعرٍ أحمر لافت، والأخرى تبدو وكأنها تحمل العالم على ظهرها النحيل. انحنت الفتاة الهزيلة لتكتب شيئًا على الورقة، ثم ابتعدت مع رفيقتها بخطواتٍ بطيئة، كأنّ كلّ خطوة تُكلّفها جهدًا لا يُطاق. تقدم نحو الموظفة، وصوته يخونه قليلًا:

- إنني أبحث عن فتاة إن كانت قد زارت المستشفى خلال الفترة الماضية!

نظرة الموظفة بشيء من الريبة غير المبررة، ثم سألت عن اسمها فأجاب:

- اسمها (سحاب)، لا أظنُّ أن لاسمها شبيهًا في هذه المدينة.

أطالت الموظفة النظر إليه، ثم بدأت تبحث في السجلات... وبعد لحظاتٍ من التصفح، هزت رأسها:

- لا يوجد مريض بهذا الاسم.

أحسَّ كأن الأرض انسحبت من تحت قدميه.. كالعادة، وككل مرة، غادر القسم، وعيناه تبحثان بين الحشود، حتى رأى من بعيد ظلَّ الفتاتين اللتين سبقتاه. قال في داخله مشدوهًا وهو يحدِّق بتلك الفتاة المتعبة:

- سحاب! إنها تشبه سحاب.

حاولَ التَّمَعُّن في ملامحها من بعيد وأقدامُه تيبَّست مكانها، دقق في ذلك الشحوب، وفي تلك العينين العميقتين. كانت تشبهها، لكنَّها اختفت فجأةً، كأنها تبخرت بين الزحام. أسرع خلفها، دار في الأروقة، بين الممرات... ولا أثر.

عاد أدراجَه إلى قسم الاستقبال والمغادرة، وأخذ يبحث عن الورقة التي كتبت عليها الفتاة معلوماتها، فوجدها ما زالت على الطاولة. تقدَّم بخطوةٍ

جريئة، وقال للموظفة:

- أريد أن أرى هذه الورقة.

رفعت الموظفة رأسها بنظرةٍ حادّة:

- ما اسم الفتاة التي تبحث عنها؟

- (سحاب)... قلتُ لكِ!

قرأت الموظفة الورقة، ثم نظرت إليه وأومأت بالنفي. فمدّ (سراج) يده باندفاعٍ ليمسك الورقة، لكن الموظفة سبقته وسحبتها بعيدًا، ثم قالت بنبرةٍ لا تقبل الجدل:

- لا يمكن إعطاؤك معلومات المرضى هكذا! لقد سألت عن (سحاب) وأخبرتك أن اسم تلك المرأة ليس (سحاب).

أحسّ (سراج) بالحمق وبأنّه قد تجاوز الحدود. لكن قبل أن يغادر، لاحظ شيئًا... الورقة التي كانت أسفل تلك الورقة، كانت تحمل آثار القلم، فقد حُفرت الكلمات عليها مثل ندوبٍ خفيّة. وبحركةٍ خاطفة، انتزع تلك الورقة الفارغة وخرج مسرعًا، متجاهلًا صرخات الموظفة التي تلاحقه.

الورقة في يده تُحاكي ببرودتها نبض قلبه المتسارع. في زاويةٍ هادئة، رفع الورقة نحو الضوء، محاولًا قراءة الظلّ الذي تركته الكلمات المحفورة... لكنّ الظل كان باهتًا، والكلمات غير واضحة. كل ما استطاع تمييزه هو جزءٌ من أحرف ناقصة وباهتة ربما تمثّلُ اسمها وعنوانها... وبعض الأرقام التي قد تكون رقم ملفها الطبي. أطبق أصابعه على الورقة، وعاد بها إلى المنزل ولديه شيءٌ من الأمل.

الفصل التاسع والعشرون

تمدّد (غيم) على فراشه، وما تزال أشعة الشمس المتقطعة تنساب من بين الغيوم لتنفُذ إلى غرفته بشعاعها الهادئ، حاملة معها قصصًا لا يمكن تفسيرها. كانت الغيوم تلوح في مخيلته، بيضاء، مكتنزة، تسبح في زرقة لا نهائية. كان يرسم في باله كيف سيلتقي (سحاب)، لو كان غيمة تسبح في ذلك الفضاء الواسع، كيف سيمرُّ من خلالها فيلمس قلبها من الداخل.

لكنّه كان متعبًا جدًّا، مُنهَك الجسدِ بعد يومٍ أعياه، فانجرف نحو النوم دون أن يدري، ليجد عقله ما يريحُ تفكيرَه الطويل.

***

وبعد فِراقِ خمس سنوات..

رأيتها، ولكنها كانت باهتة الألوان، ولم تَعُد كالبدر، بل أصبحت كالهلال في أواخر شهر شعبان؛ ممتلئة بالتعب والهموم. شحبَت ملامحها، وكأن السنين قد تركت آثارها عليها. كانت كالقمر حين تحاول السُحب إخفاءه، لكن ذلك لا يُغير من فطرتها، فهي ستظل قمرًا. لقد أفل رونق نظراتها البراقة، وأصبحت تنظر نحوي بنظرات باردة، تكاد تتجاوز برودة ليالي ديسمبر. وقف يحدق فيها من بعيد، يحمل في صدره ركامًا من الأسئلة:

- كيف حالك؟

أراد الاقتراب منها، أن يسألها، أن يمسك بيدها ويقول لها ما لم يقله قَطُّ.. لكن شيئًا ما جعله يتجمَّد في مكانه، كأن الأرض تشبثت بقدميه.. ربما كان خوفًا من أن تزداد المسافة بينهما، أو ربما كان يعرف، في مكان ما من أعماقه، أن بعض الأسئلة لا تحتاج إلى إجابات، فسأل كل ما كان في خاطره، لكن دون أن يحرك فمه:

هل كل هذا التعب الذي يكمُن في عينيك بسببي؟ هل بُعدي أرهقك؟ هل تعبتِ كثيرًا يا قمري، أما زلتِ تحبينني؟ أما زلتُ أزرقكِ؟ هل صان قلبكِ

العهد؟ أدَخَلَ قلبَكِ أحدٌ غيري؟ هل تسامحينني؟ هل ما زلتِ تريدين أن أكون جارك وفي جوارك؟ هل تسمحين لي أنْ أعود إليكِ وأصبح من جديد رجل دارك؟ وهل ... وهل ... وهل؟!

قالت وهي تقترب نحوه بنبرة هادئة لا تحمل أي مشاعر:

- ما الذي تريده يا (غيم)؟

كانت قويَّةً حتى بعد أن خانها جسدها. نظرت إليه نظرة تحمل في داخلها خيبةً كبيرة، وعتابًا أكبر، وحزنًا يثبت أنه ما زال يحتلُّ مساحةً من قلبها. لكنَّها رغم ذلك كانت تحاول أن تتحدث بثباتٍ صارم، وكأنه مجرّد عابر سبيل، لا تاريخَ مشتركٌ يربطهما، ولا ذكريات تئنُّ تحت وطأة الغياب.

أحسَّ بجملةٍ عالقةٍ في حلقه، كان يريد أن يطلب منها السماح، لكنّه عرفَ أنّه لا حقَّ له في طلب شيء. فصمت، وامتدَّ صمته كئيبًا أمامها، عاجزًا عن النطق، كأسيرٍ مهزومٍ بعد معركةٍ لم يخُضها باختياره.

لكنَّ ما حطَّم قلبه حقًّا، ما جعله ينزفُ داخليًا دون أن يجرؤ على البكاء، كان مناداتها إيَّاه بـ(غيم). فقط... (غيم)، بلا لقبٍ حميم، بلا أزرقي؛ التي اعتادتها شفتاها. انتابته غُصَّةٌ خانقة، فأدار وجهه نحو عينيها، ينتظرُ عفوًا لن يأتي، لكنَّها بادرته قبل أن يجد كلماتٍ يعتذر بها:

- ما الذي أتى بك بعد كل تلك السنين؟

وبعد صمتٍ طال، نظرت إليه بازدراء وقالت بصوتٍ حادٍّ:

- أذكرُ أنَّك تجيدُ الحديث، أم أنَّ مهارتك تقتصر على الغزل والكلام المعسول كعادتك؟

حينها، حاول أن يجمع قواه المبعثرة، وانطلق صوته خافتًا يعترف:

- شعرتُ بالعار مما فعلت... ولا أطلب السماح، فلا حقَّ لي فيه.

لكنها لم تمنحه فرصة ليكمل، وقاطعته بجملة واحدة جليدية:

ART_OF_BOOK

- جيد...

أحسّ بأنّ الباب أمامه أوشك أن يُغلق إلى الأبد، فاندفع مُترجّيًا:

- ولكنّي أريد العودة...

وفي تلك اللحظة، رأى غشاوةً رطبةً تعلو عينيها الخضراوين، فتحوّلتا إلى ورقتين نديّتين تلمعان تحت ضوء خافت. لا يعرف لماذا انسابت في صدره موجة فرحٍ عابرة، لكنّ ذلك الشعور تلاشى سريعًا عندما واجه برودها القاسي. كان مستعدًا لتقبّل أي شيءٍ يثبت أنّها ما زالت تحتفظ له بشيءٍ في قلبها، حتى لو كان كرهًا، حتى لو كان احتقارًا... أي شيءٍ أفضل من أن يكون مجرّدَ لا شيءٍ في حياتها. ثم سمع صوتها يقطع الصمت كسكين:

- وماذا عن الجروح التي فتحتها في قلبي؟

- سأعالج جميع جراحك إن سمختِ لي.

- وبما أنك تعلم أنني جريحة، فلماذا تزيد جراحي؟!

صرخت فيه، وكلماتها تثقب صدره كسهامٍ مسمومة.

اقتربت منه حتى كادت أنفاسها تلامس وجهه، تحدّق في عينيه بنظراتٍ ثقيلة بالعتاب والخيبة، حتى اضطرّ أن يطأطئ رأسه من شدّة الخجل. فهمست بصوتٍ هزّه رغم خفّته..

- لماذا تركتني أتوه ولم تجدني؟

رفع عينيه إليها، محاولًا أن يجد في ملامحها شيئًا من الرحمة.

- بل أتيتُ...أتيتُ بعد أن علمت بما حدث. بحثتُ عنكِ في كل مكان، ولم أجدك. ذهبت إلى دارك، فوجدتها خاوية. كل المؤشرات كانت تقول إنكِ ميتة، لكنّي رفضت أن أصدّق. ظللت أبحث عنكِ في كل المدن المحيطة بالنهر، لم أتخلّ عن الأمل ولو ليومٍ واحد.

أشاحت بوجهها عنه ببطء، وكأنّ كلماته لم تكن سوى هواءٍ يمرُّ دون أن

يترك أثرًا. ثم مشت بضع خطواتٍ ثقيلة، قبل أن تستدير فجأةً وتواجهه مرّة أخرى، وقالت بحزمٍ يخفي وراءه رعشةً تكاد تفجر صوتها:

- كلُّ هذا الهراء لا يعني شيئًا فالنتيجة واحدة.

حاول أن يمسك بذراعها، لكنها انتزعت نفسها منه، ثم قال:

- أنتِ لا تعرفين ما عانيته في غيابكِ... ولا تعرفين ما الذي دفعني إلى الابتعاد.

ابتسمت بمرارة، وكأنها تستمع لأكذوبةٍ مكررة، ثمّ قالت وعيناها تلمعان بالدموع:

- الحياة سرقت مني كلَّ شيء، فقدتُ أمي وأنا طفلةٌ لا أعرف حتى كيف يكون الحزن، ثم سرقت مني أبي، فتركني وحيدة وليس هناك مَن يحميني، لكنَّ الحياة لم تكفَّ عن جشعها... فانتظرَتْ أخي (سديم) حتى يكبر لتخطفه منّي على غفلة. فتحوَّل قلبي إلى رماد، ومع كل هذا، لم أستخدم معاناتي عذرًا لأكون قاسيةً مثلما تفعل أنت الآن!

كانت دموعها تسيل بغزارة، وهي تغادر مبتعدة عنه، فنادي بأعلى صوته:

- إلى أين؟؟

فأجابت دون أنْ تلتفتَ إليه:

- لألحق بهم.

***

استيقظ غيم كأنَّ صاعقةً اخترقت صدره. قفز من فراشه وهو يتصبب عرقًا، بعد أن خرج من معركةٍ أحلامه. حلقه جافٌّ كالصخر، وأنفاسه تتسارع بوتيرة مضطربة. شهقَ بعنفٍ، محاولًا أن يمسك الهواء إمساكًا، لكنَّ رئتيه كانتا تضيقان كأنما سُحِقتا بين فكي الخذلان.

نفض الفراش بيدٍ مرتعشة وراح يفكّرُ بقلق: هل كان حلمًا؟ هل كانت هنا

ثم اختفت؟ لكن الوسادة مبتلة، والغرفة صامتة، والليل الذي في أوله، جميعهم أخبروه بأنّها لم تكن سوى سراب في عقله التائه.

لكن الحلم كان واضحًا كوضوح الشمس. رأى نفسه يقف أمامها، وهي تنظر إليه بعينين مليئتين بالخيانة، تتّهمه، تدفعه بعيدًا، تبكي، ثم تختفي كالدخانِ.. فقفز من مكانه مرعوبًا ليكمل مسيره سريعًا بالبحث عنها.

الفصل الثلاثون

دخل (سراج) إلى منزل (غيم) دون أن يطرق الباب..

وجده وسط أكوام من الملابس، يطوي بعضها ويضعها في حقيبته ويرمي الأخرى على عجل، كأولى الخطوات للرحيل إلى بلدة أخرى. كان واضحًا على (غيم) أنه قد أفاق الآن من نومة المساء المتعبة.

وقف (سراج) في المدخل، صامتًا، ينظر إليه بنظرة غائمة، كأنّه يحمل في عينيه سرًّا ثقيلًا. أحسّ (غيم) بذلك الصمت المليء بالأسئلة، فرفع رأسه من بين الأغراض وبادله النظر قائلًا:

- ماذا بك؟

أخذ (سراج) نَفَسًا عميقًا، ثم قال:

- رأيتُ اليومَ امرأةً تشبهُ (سحاب).

لم تكن ملامح (سراج) توحي بصدق رؤيته، بل بدت ككلمات تخرج من خيال مرهقٍ يطارده. نظر إليه (غيم) للحظة، ثم عاد إلى طي قمصانه، وهو يقول بتوتر وحرقة:

- إني أراها في كلّ الوجوه ولا أرى سواها... ولكنّني أريدها هي، لا من يشبهها.

صمت (سراج) لبرهة، ثم مد يده في جيبه وأخرج الورقة وقال:

- لم أستطع جلب أيّة معلومات عنها... إلا هذه الورقة. قالت الموظفة إن الاسم المكتوب هنا ليس اسمها، لكنّي أحضرتها إليك... ربما تستطيع قراءتها. الكلمات باهتة، والأحرف كلها من دون نقاط.

عندما سمع (غيم) كلمة من دون نقاط، تجمّد في مكانه، ثم اندفع فجأةً، كأن صاعقةً اخترقت جسده، وانتزع الورقة من يد (سراج). احمرَّ وجهه، واختنقت عَبرَةٌ في حلقه، وكادت عيناه تفيضان. قال بكلمات مبعثرة:

ART_OF_BOOK

- إنها عادتها...

كان يعلم (غيم) أنّها كانت تكتب من دون نقاطٍ عندما تشعر بخيبةٍ... أو حين يُنهكها التعب...

بدأت أصابعه ترتجف وهو يحاول فكّ شفرة تلك الكلمات الباهتة، وكأنه يقرأ رسالةً من عالم الأموات. وأخذ من درج سريره قلم رصاص وراح يحف الورقة به، حتى بدأت ملامح الأحرف تظهر بشكل أوضح. ثم فجأةً، انتعل حذاءه بسرعةٍ جنونيّة، واندفع خارج المنزل دون أن ينطق بكلمة، بعد أن قرأ عنوانًا مكتوبًا في الورقة.

ركض (غيم) في الشوارع كالمجنون، والورقة تُحكِم قبضتها على قلبه. الرياح تضرب وجهه، لكنّه لا يشعر إلا بذلك العنوان الذي قرأه للتو... العنوان الذي قد يقوده إليها أخيرًا.

الفصل الحادي والثلاثون

كانت الشّمس تميل نحو الغروب حين وصلتا (سحاب) و(سيلاي) إلى باحة المنزل، تاركةً خلفها أشعّةً ذهبيّةً تلامس الأرض كأنّها تودّعها. فُتح أحد الأبواب المجاورة، ثم ظهر (مطر) مثل شعاعٍ فجائيّ يندفع من بيت الجارة نحو أمّه بكلّ ما تحمله قدماه الصغيرتان من شوق.

صرخ (مطر) مناديًا أمّه وهو يمدّ ذراعيه الصغيرتين، لكن (سيلاي) التقطته بحنوٍّ قبل أن يصل إليها، خائفةً أن يؤذي اندفاعه أمّه المتعبة. وهمست في أذنه:

- مهلًا يا مطر، أمّك تحتاج إلى الرّاحة.

لكنّ عينيه لم تفارقا وجه أمّه الشاحب، الذي بدا كظلٍّ لنفسها. كيف لها أن ترفض ذراعيه؟ كيف تقول «لا» لقلبها الذي ينبض فقط من أجله؟

أمسكته بين ذراعيها بقوة، كأنّها تخشى أن يتبخّر من بين يديها لو تركت القبضة ترتخي قليلًا. أغمضت عينيها وهي تشمّ رائحة شعره، تتنفّس فيه كلَّ ذكرياتها، كلَّ آمالها، كلَّ الأيام التي سرقها منها المرض.

قال (مطر) ببراءة طفلٍ لم يعرف بعدُ معنى الألم الذي تعيشه أمّه:

- أمي، العبي معي كرة السلة!

نظرت إليه (سيلاي) بعينين دامعتين، محاولةً أن تملأ الفراغ:

- تعال يا صغيري، سنلعب معًا أنا وأنت.. أمك متعبة اليوم.

اقتربت (سيلاي) من الطفل ومدّت يدها إليه، لكن الصغير انتفض، وارتسمت على ملامحه جديّةٌ تفوق سنّه، صاح ممتعضًا:

- أخطأتِ في اسمي! مطر، اسمي مطر... ساد صمتٌ قصير، كأنّ الكلمات سقطت في المكان كحجرٍ في ماءٍ ساكن؛ صمتٌ ثقيلٌ كأنّ الهواء نفسه قد توقّف. عندها التفتت عينا (سيلاي) نحو (سحاب) تبحثان عن ردة فعلٍ...

كانت (سحاب) شاردةً للحظة حين عصفت بها الذكرى، ثم لاحت على شفتيها ابتسامةٌ جافة؛ ابتسامةٌ تحاول أن تستر وجعًا ثقيلًا صعد من أعماق الذاكرة. في تلك اللحظة، بدا وكأنّها تسمع صوتًا قديمًا يتردّد في صدرها، ذكرى أبت أن تهدأ يومًا.

حاولت (سيلاي) أن تلطف الموقف بلهجةٍ دافئةٍ قائلةً:

- ولكن أمك متعبة اليوم يا مطر...

رفعت (سحاب) رأسها ببطء، وعيناها غارقتان بما يشبه الغربة. ثم ارتسمت ابتسامةٌ أخرى على محيّاها، تلك التي لا يعرفها إلا الأمهات: ابتسامةٌ قادرةٌ على أن تواري خلفها آلام العالم كلّه. وقالت بصوتٍ متهدّجٍ بالحنان، لكنه حاسم:

- لا، دَعيه... أريد أن ألعب معه.

أخذت الكرة من الأرض بيدٍ مرتعشة، وشقّت طريقها نحو السلة الصغيرة المعلّقة على الجدار. كلّ خطوةٍ كانت كأنّها تسير على جمرٍ، وكلّ حركةٍ تُفرغ جسدها من آخر قواها.

رمت الكرة.. فأخطأت. التقطتها بضحكةٍ مكسورةٍ، وكأنّها تخدع نفسها بأنّ كلّ شيء طبيعي. ثم نادت لثلفت انتباهه:

- انظر يا مطر، ساصيب هذه المرة.

رمت مرةً أخرى، فتدحرجت الكرة حول الحافة قبل أن تسقط خارج السلة، لكن الصغير صفق بحماس وقال:

- كادت أمي أن تصيبها!

ضحكت، وكانَ ضحكها أشبه بأنينٍ مُقنَّع. التقطت الكرة للمرّة الثالثة، وهذه المرة أغمضت عينيها وهي ترميها، وكأنّها تُصلّي أن تُصيب، ولو لمرةٍ واحدة... من أجله.

وفي هذه المرة، سقطت الكرة في السلة. صرخ (مطر) فرحًا، بينما كانت هي تسقط على ركبتيها، منهكةً، ممتلئةً بسعادةِ طفلها الذي لم يعرف بعد أن هذه قد تكون آخر مَرّة تلعب فيها معه.

همست (سيلاي) وهي تمسح دموعها بظهر يدها:

- سحاب...

لكنها لم تُكمل الجملة؛ لم تكن هناك كلماتٌ تكفي.

كانت (سحاب) تنظر إلى ابنها وهو يقفز فرحًا، وتتمسّك بتلك الصورة كأنّها تختزنها في قلبها إلى الأبد. كانت تعرف أن لعبته القادمة قد لا تكون معها... لكنها اليوم، على الأقل، انتصرت بصنع ابتسامته.

وانتصرت لأنّها استطاعت أن تُخفي دموعها خلف ضحكة، وأن تُخفي عنه رهبة ما هو قادمٌ إليها.

قالت (سيلاي) لـ(سحاب) وفي عينيها بريق حنان:

- لماذا نَحِنُّ إلى طفولتنا؟

أجابت (سحاب) وهي تلتقط أنفاسها:

- لعلّنا نَحِنُّ لها لأننا كنّا فيها أبرياء... لم تُلوّثنا الحياة بعد، ولم تُثقل أرواحنا بهمومها وشقائها.

قالت (سيلاي) بصوتٍ خافتٍ وكأنّها تحدّث نفسها:

- وكم من أثقالٍ وآلامٍ في أرواحنا لا تُرى!

سمعت (سحاب) تلك الكلمات، فردّت:

- بل تُرى يا سيلاي، ولكن... لا تراها العيون، بل يبوح بها الجسد على هيئة أمراض، وكأنّه يدفعنا للإفصاح عمّا خزنته أرواحنا.

طأطأت (سيلاي) رأسها وهي تفكّر بالمصائر القادمة نحو هذه الأسرة،

ثم طلبت من (سحاب) الجلوس على أحد الكراسي في الحديقة، وجلست بجانبها وهي تصبّ لها الماء، ثم مدّت إليها الكأس. شربت (سحاب) قليلًا، ثم قالت لـ(سيلاي) ما كانت تفكّر فيه:

- أتعلمين؟ لم أفهم يومًا كيف ينهار الجسد بسبب ما نحمله في الدّاخل، حتى أصبحتُ أنا الدليل الحي على ذلك. كنتُ أظنّ أن المرض مجرّد خللٍ عضويّ، شيء يحدث هكذا بلا سببٍ واضح، لكنّني الآن أعرف الحقيقة... الأمراض ليست دائمًا في الجسد، بعضها يبدأ في الروح أولًا، يتشكّل من الحزن، من الخوف، من الضغوط التي ندفنها دون أن ندري أنّها ستكبر يومًا وتبتلعنا. جسدي لم يخذلني فجأة، بل ظلّ يرسل لي إشاراتٍ طويلة تجاهلتها: الإرهاق المستمر، الأوجاع التي لا تفسير لها، الصداع، الأرق... كنت أقول إنها مجرد ضغوط وسأرتاح يومًا ما، لكن ذلك اليوم لم يأتِ أبدًا، حتى جاء السرطان ليضعني وجهًا لوجه مع الحقيقة... لم يكن السرطان مجرد ورمٍ في جسدي، بل كان خلاصة كلّ ما مررت به، كان انعكاسًا لتعب السنوات، للألم الذي لم أتحدث عنه، للدموع التي جفّفتها قبل أن تسقط. كأنّه كان هناك دائمًا، يكبر بصمت، يتغذّى على كلّ شيء. لم أواجهه حتى قرّر أن يعلن عن نفسه، والآن بعد أن دخلت هذه المعركة، أدركت أن شفائي لا يعتمد فقط على الأدوية، بل على شيءٍ أعمق... أن أواجه أوجاعي بدلًا من دفنها، أن أتعلم كيف أتنفّس دون أن أشعر بثقلٍ على صدري، أن أحرّر روحي من كل ما يجعلها تضعف.

انتهى ذلك اليوم المتعب، الأشبه بالكابوس، خصوصًا لـ(سيلاي). أمّا (سحاب) فاستمرّت بقراءة الكتب والتدوين كما كانت تفعل من قبل، غير أنها باتت تُطيل جلوسها مع (مطر) أكثر من ذي قبل، كأنها تغتنم الفرصة.

وكانت (سيلاي) تراقبها بتعجّبٍ؛ فكيف للإنسان أن يتعايش مع فكرة موته في أيّ لحظة؟

ومرّت الأيام، واشتدّ على (سيلاي) التفكير، وصعب عليها ما تمرّ به صديقةُ عمرها، وغضبت من تجاهلها للأمر، فهي تريد أن تبكي وتتذمّر كما

يفعل بقية الناس.

توجّهت مسرعةً إلى غرفتها دون أن تطرق الباب، وجلست بجانبها على الأريكة القريبة من السرير، وكانت كعادتها تجلس أمام مكتبتها الصغيرة وتكتب.

سألتها (سيلاي) لتفتح الحديث:

- ألم أصبح إلى الآن صديقتك التي تستحق أن تستمعي إليها وتبوحي لها؟

نظرت (سحاب) إليها وأجابت:

- أنتِ الوحيدة على هذه الأرض التي رأيتُ فيها راحةً روحي.

- إذًا فقد ارتاح قلبك لي!

- بالطبع يا سيلاي، قلبي دائمًا ما يميل إلى السماء وإلى زرقتها، لأنّها تمنحني شعورًا بأنّ هناك شيئًا أنتمي إليه. وأنتِ يا سيلاي... أشعر أيضًا بأنك تشبهينني، بل تشبهينني كثيرًا.

قالت (سيلاي) بعدما سمعت ما أثلج صدرها من كلام:

- إذًا لِمَ لا تستبدلين البوحَ بالكتابة؟

- لأني لا أجيد البوح.

أمسكت (سيلاي) بيدي (سحاب) وقالت:

- أرجوكِ، بوحي! هدوؤك يخيفني... افعلي أيَّ شيء، هذا الهدوء مريع!

- وماذا أفعل يا سيلاي؟

- ابكِ! البكاء يخفّف الألم. أعلم أنّك تتألمين، ولكنّك تخفين ذلك.

- هل لي دمعةٌ أبكيها لتخفّف من وجع قلبي يا سيلاي؟ لو اجتمعت دموع العالمين جميعها، لما استطاعت أن تغسل ألم روحي. وبما أني أعلم أن لا

ART_OF_BOOK

شيء يخفّف حزني، فلِمَ التذمّر؟

- ألا يحزن المرء لمغادرته هذه الدنيا؟

- ولماذا يحزن المرء؟ لأنّه سيموت؟ من الغباء أن يحزننا قدرٌ محتوم. سأرتاح من مشقّة هذه الدنيا، سأذهب إلى لقاء والدي، لقد اشتقت إليه كثيرًا يا سيلاي!

نهضت (سيلاي) من على الأريكة وهي تشيح بوجهها، لتخفي دموعها التي تساقطت على الأرض.

***

الفصل الثاني والثلاثون

كانت (سحاب) تتمدّد على سريرها بهذيانات كثيرة، وتنظر إلى النافذة لترى السماء من خلفها، ولا تدري فربما يكون ما تراه هو المشهد الأخير من مشاهد الدنيا، ثمّ تمتمث بأسى بعد صمت طويل:

- لماذا أسميتني بنورِ ظلامِك وقمر ليلك؟ هل ستلاحقُني لعنةُ طيفِك كلّما حلّ المساء؟

كانت سيلاي تراقبها من قرب، فقالت تسألها:

- أما زلتِ تحبّينه؟ يا للكِ من فتاة رقيقة!

- لا يهمني أنْ أكون فتاة رقيقة فهذه فطرتنا، يهمني أن أكون فتاة صلبة فهذا ما أحتاج إليه، وهذا سيكون من صنع نفسي.

صمتَت (سحاب) قليلًا تفكّر في الحُبّ الذي أنهكها، ثمّ سألت (سيلاي):

- هل مسّ قلبك الهوى من قبل؟

فوجئت (سيلاي) بالسؤال وقد ظهر الارتباك على ملامحها، لكنّها سرعان ما أخفت ذلك ممسكةً بخصل شعرها لترمي بهم إلى الوراء، قائلة:

- الحبُّ بالنسبة لي هراء، ولا شأن لي به.

تساءلت (سحاب) بصوت خافت هل وصلت كلماتها إلى مسمع (سيلاي) أم لا:

- هراء؟

ثم حاولت أن ترفع صوتها قدر الإمكان لتتمكّن من البوح بكلّ ما بداخلها، وقالت:

- عندما لا أجد ما يتّسع لعواطفي، أحتمي بعقلي، وأقول إنّ تلك الأشياء ليست سوى هراء... أوّل حبٍّ في حياتي كان أبي ولم يأتِ أعظمُ منه ليكون

الثاني.

- تميل المرأة إلى مَن يُشبه أباها؛ لأنّ الطفلة التي بداخلها ما زالت تبحث عن ذات الحضن الآمن القديم. لاحظت ذلك على نفسي عندما رأيت (غيم) لأول مرة، فقد تدلّت خصلة بيضاء من مقدمة رأسه وأخرى في نهاية لحيته، لكنّني تيقنتُ أنّه لا وجود لرجل كالأب.

- كلانا يعلم أنّه لا يوجد رجل كالأب.

قالت (سحاب) وقد زمّتْ شفتيها بحزن وفرّت دمعةٌ من طرف عينها:

- وهمٌ... أوهمت نفسي به أنّه مثل أبي.

سألت (سيلاي) وهي متردّدة:

- لِمَ أسميتِه أزرقك؟

فكّرت (سحاب) طويلًا قبل أن تجيب، واختنقت من تذكُّر ذلك اللقب الذي كان سببًا في نبش الألم الذي بداخلها كلما رأت أي شيء يحمل اللون الأزرق، فقالت:

- ربما كان وهمًا حينما أسمَيتُه أزرقي، ربما كنتُ فقط أتشبّثُ بخيوط أملٍ زائفة أقنع نفسي بأنّ في هذه الأرض ما زال هناك مَن هو نقي رغم عدمِ وجودِ أيّ دليل حيّ يثبت ذلك. خدعتني ابتسامته الحنونة التي بدت وكأنها جاءت بعد معركة طويلة مع الحياة كما لو كان خلاصًا كنت أبحث عنه؛ لأنسى القسوة التي عشتُها، ذاك الذي ظننته سماء كان سوادًا ابتلع كلَّ بياض في داخلي، طوفانًا زائفًا هاج عليّ حينما كنتُ أظنُّه نجاةً. لم أستطع أن أرى السواد لأنّي أنا من كنتُ أُلَوّنُه بأوهامي، كنتُ أظنُّ أنّ السواد إن وُجد فهو لون عينيه فقط، لكنّي لم أعلم أنّ ما ظننتُه زرقةً لم يكن سوى غطاء رقيق يطمس تحته هوية سواد ظالمة، وها قد غادر محطمًا آمالي.

دام صمت طويل، وكانت (سحاب) أخرجت كلَّ ما في قلبها، ثمّ كَسَرَتْ ذلك الصمت بسؤالها عن (مطر)، فأخبرتها (سيلاي) بأنّه نائمٌ في الغرفة

الأخرى، فطلبت منها حمله؛ لينام في حضنها وكأنّها تطلب طلبها الأخير.

مسحت (سحاب) بيدها شعر صغيرها، ثم التفتت إلى (سيلاي) وقد تلبّدت غيوم الحزن في عينيها، كانت تحمل وراءها غيثًا يكاد أن يهطل، وبنبرة مخنوقة قالت:

- لم أرغب في فتح هذا الحديث، ولكن...

التقطت نَفَسًا علق في حلقها الجاف، ثم قالت بنبرة ودودة:

- أعلم جيّدًا أنّكِ ستعتنين بمطر، لكنّ الأمّ لو كان بمقدورها أن تصبح أرضًا يمشي عليها طفلُها، لَمَا تردَّدَت لحظة. لذا... أرجوكِ بحق صداقتنا.. اعتني به جيّدًا بعد رحيلي.

لم تحتمل (سيلاي) تلك الكلمات، فتجرَّدت من قوّتها، وانفجرت بالبكاء وهي تحتضنها بقوّة، قائلة:

- أعدكِ، سأعتني به كما لو كان طفلي!

دامت لحظات صامتة، تخلو من كل شيء إلا من رقرقة الأعين، ثم قالت (سحاب) وهي تفكّر بصغيرها:

- أحببتكَ بقلبٍ مُتعَبٍ، كنتَ لي ذلك النور في آخر النفق المُظلم يا صغيري.

ثم أغمضَت عينيها، وقالت بهمس:

- لقد وعدني بأنّه لن يتركني.

ردَّت (سيلاي) على جملتها:

- منذ متى والنساء تُصدِّق وعدًا يقطعه رجل؟!

همست (سحاب) بصوت مُرتجف:

- لم يكن رجلًا عاديًا.. لقد كان أبي.. مات وتركني حتى في أحلامي، لم

يعد يأتي طيفه.. لم يعد يزورني... ربما حان دوري لأزوره.

الفصل الثالث والثلاثون

وصل (غيم) مُنهكًا، قدماه تنزفان من السير طوال الليل، وعيناه حمراوان من السهر والبكاء. كان وجهه شاحبًا كمن كان يحتضر، وجسده يرتجف من البرد والإرهاق. وأخيرًا، وقف أمام المنزل الذي طالما حلم بلحظة الوصول إليه، لكنّ المشهد الذي رآه جعله يتجمّد في مكانه.

كانت مجموعة من الرجال والنساء يحيطون بالمنزل، وجوههم مغطاة بظلال الحزن، ونبرات حديثهم خافتة كهمسات الموتى. لم يفهم ما يحدث، لكنّ قلبه بدأ ينبض بسرعة مجنونة. ثم فُتح الباب على مصرعيه، وخرج مسعفان يحملان نقالةً عليها جثة مغطاة بقطعة قماش بيضاء.

اقترب (غيم) بخطوات متثاقلة، كأنّ ساقيه لم تعودا جزءًا منه. تصادم بمن حوله دون أن يشعر، وعيناه مثبّتتان على ذلك الجسد الذي يرفعه الرجلان. فجأة، سقط طرف القماش، وكشفت الريح عن وجهٍ عرفه جيّدًا.....

تلك العينان اللتان كانتا يومًا بحرًا من الحياة، أصبحتا الآن مغلقتين إلى الأبد. تلك الشفاه التي كانت تهمس باسمه (أزرقي)، صامتة الآن بلا رجعة.. همس وهو يرتجف:

- لا... لا... (سحاب).

ثم جثا على ركبتيه، وكأنّ قوة الأرض كلها سُحبت منه دفعة واحدة.. الدموع انهمرت على خديه، لكن صوته اختنق في حلقه.

حاول أن يصرخ، لكن كل ما خرج منه كان شهقةً مكسورة. سمع أحدهم يردّد بصوت خافت:

- (إنا لله وإنا إليه راجعون).

غطّى أحد المشيعين وجه (سحاب) بالقماش مرّة أخرى، ووصلَ المسعفان بحملهما إلى السيارة. بدأ الجميع يتحرّكون خلفها بينما بقي

(غيم) جاثيًا على الأرض، غيرَ مُصدّقٍ ما يراه.

ثم صرخ فجأةً، ليُمزّقَ صوته صمت الصباح الباكر:

- (سحاب) لم تمت! لقد وعدتها بأن نحيا معًا!

كان النعش يُحمَل بعيدًا عنه، خطوةً تلو الأخرى، كأنّما يجرّعونه الفراق قطرةً قطرة. أصوات النائحات، كلمات العزاء، كلها بدأت تذوب في الفراغ، تتهاوى كأوراق الخريف، حتى لم يبقَ سوى صوتٌ واحد... صوت طفلٍ صغير.

انزاحت الغمامة عن عينيه فجأةً، كما لو أنّ القدر أراد أن يريه الحقيقة. هناك، بين المحتشدين، صبيٌّ عيناه تفيضان بالدموع، وصراخه وهو ينادي على أمّه يطغى على كلّ نداء. نظر إليه (غيم)، فكأنما ينظر إلى مرآة زمنية. تلك الجبهة، والعينان، والأنف... كلها كانت نسخةً منه.. وفي أسفل عينه اليسرى ترتكز شامة كتلك التي تزين بها وجه (سحاب). همس في داخله، وكأنّ الكلمة احترقت في حنجرته قبل أن تخرج:

- ابني...

ثم كلمح البصر.. رأى المشهد يتكرر، رأى يدًا مجهولةً تمسح على رأس الطفل وتقول:

- في المسح على شعر اليتيم ثواب.

الذاكرة ضربته كالصاعقة، ودموعه سالت على خديه المُنهكَين، سالت على قلبه المُنهار، رأى طفولته البائسة تعود من جديد، لكن هذه المرة في عيني ذلك الصغير البريء.

أحسّ بيديه ترتعشان، ثم تشبثتا بقوةٍ بقرارٍ نما في أعماقه:

- لن يعيش (مطر) مثلما عِشتُ أنا... لن أدعه يشعر بالنقص كما شعرتُ أنا.

النهاية

بعد ثلاثة أيام، انتهت مراسم العزاء، واستمرّت الحياة كعادتها.. وعادت للجميع إلا لـ(غيم)، الذي عاد إلى منزل (سيلاي) ليقضي يومه في غرفة (سحاب)، تارةً يشمُّ عبق عطرها العالق في شالها الصوفي، ذلك الذي بقي مرميًا على سريرها.. تارةً يقلب صفحات دفتر يومياتها؛ يقرأ ما كتبته عنه فتتبلل الصفحات بدموعه، وبينما كان يتصفح تلك الأوراق، وقعت عيناه على أحد النصوص التي خطّتها بيدها:

«خلال تخبُّطي في رحلتي الاستشفائيّة منك، لجأت إلى علم النفس، وفي أحد الكتب استوقفتني جملة قال فيها الكاتب: إنّ خلايا الدماغ تتجدد خلال سبع سنوات، ممّا يعني أنّ الإنسان يتناسى ويتجاوز عقله، وثباد ذاكرته. حينها ابتسمتُ ابتسامةَ انتصار، فقد تخطّيتُ ثلاثةَ أرباع المدة، بقيت لي سنتان فقط تفصلني عن نسيانك... سأتجاوزك. كان هذا أملي الوحيد، ولكن حين دققّتُ بالنص، أدركت أنّ خلايا الدماغ قد تنسى، لكن ما لا يُنسى هو ما يشعر به القلب، لم يذكر الكاتب الروح، فماذا عنها؟ ولم يقل شيئًا عن العيون وما شاهدت من حبٍّ!

والأن سوف أكتفي بالصمت؛ لأنّ الحروف لا تُسعف خيبتي».

غُصَّ (غيم) بدموعه، وشعر بالاختناق، فوضع يديه على ياقة قميصه، وفتح أحد أزراره باحثًا عن الهواء، لكنّه لم يجد سوى وجعه..

انفجر باكيًا وهو يقلب صفحة جديدة ليقرأ بصوتٍ مرتعش:

«بسببك يا أزرقي، شيء في داخلي قد انطفأ؛ فبات محالًا أن يصل إليه النور.

بسببك يا أزرقي، شيء في داخلي قد انطفأ؛ فترك خلفه أثرًا لا يزول، مهما مرَّت عليه الدهور.

بسببك يا أزرقي، شيء في داخلي قد انطفأ؛ وزرع في ثنايا روحي

جروحًا لا تندمل، بل تمتد وتطول.

بسببك يا أزرقي، شيء في داخلي قد انطفأ؛ لكنّني ما زلت أتمنّى أن أحظى بالسلام، فذلك حلم يراودني كل ليلة قبل أن أنام».

ازداد نحيبُه، ودموعه غطّت وجهَه بالكامل وكأنّها تغسل الألم المتراكم داخله. لكنّها أيضًا بعثرت ثباته الأخير. ثم قرأ ورقة أخيرة:

«تحاصرني ملامحك، فأجد نفسي مهزومةً في وسط المعركة التي خضتها لنسيانك. لا شيء يستطيع أن يمحوك من ذاكرة قلبي، يا أزرقي... فالنسيان لم يُخلق لي!».

وهنا وصل إلى الحدّ الذي لا يمكّنه من قراءة المزيد، فشغاف قلبه تقطع ألمًا، كانت تلك الكلمات كيَدٍ حنونةٍ لامست قلبَه، بعد أن اقتربت مدامعه من الجفاف. وراح يتمتم بنفسه وكأنه يتحدث إليها:

- الفرق بينكِ وبين القمر, أنه حين يغيب يعود, أمّا أنتِ فغبتِ دون عودة.

ثم رفع عينيه الدامعتين مُناشِدًا السماء، وهمس بصوت مكسور:

«وداعًا للأزرق.. وداعًا للسماء، والنجوم، والبحر.. وداعًا للشعور الذي اجتاحني حين التقيتُكِ أوّل مرة.. وداعًا للسلام، وداعًا للون الزيتون الذي يكمُن وسط عينيكِ.. وداعًا للأخضر، وداعًا لأوّل اسم أسميتك إياه.. وداعًا يا قمر».

ART_OF_BOOK

كنتُ أتمنّى لو كان قلمي قادرًا على رسم نهاية سعيدة،

لكنّ تلك النهايات لا تحدث إلّا في عوالم الخيال.

سكاي

SKYE

وبعد فراق خمس سنوات..
رأيتها، ولكنها كانت باهتة الألوان، ولم تعد كالبدر بل أصبحت كالهلال في أواخر شهر شعبان؛ ممتلئة بالتعب والهموم، شحبت ملامحها، وكأن السنين قد تركت آثارها عليها، كانت كالقمر حين تحاول السحب إخفاءه، لكن ذلك لا يُغير من فطرتها، فهي ستظل قمرًا. لقد أفل رونق نظراتها البراقة، وأصبحت تنظر نحوي بنظرات باردة، تكاد تتجاوز برودة ليالي ديسمبر.

هيفاء هزاع
@haifa_hazaa

9 786035 593028
adabanabk7
services_book
servicesbook1
www.adab-book.com